سكينر من موت الحرية إلى موت الإنسان

بقلم: د. شعبان عبدالله محمد(*)

ما زالت مشكلة الحرية واحدة من المشكلات الفلسفية الكبرى التي تصلح في حد ذاتها مدخلًا لتاريخ الفكر الفلسفي بصورة عامة. ولا نكاد نلمح في تاريخ الفكر الفلسفي مذهبًا مكتملًا لم يعن بهذه الإشكالية، الأمر الذي يؤدي بنا إلى القول بأن جل المذاهب الفلسفية منذ نشأة الفكر الفلسفي وحتى الآن عنيت بالإجابة عن التساؤل الدائر حول ماذا يعني القول بأن الإنسان حر؟.

وفي غضون البحث عن إجابة لهذا التساؤل طرح كل مذهب فلسفي تصوره لماهية الحرية بما يتلاءم مع النسق العام لفلسفته.

إن الاختلاف حول مفهوم كلمة الحرية أدى إلى القول بأنها نسبية متطورة، نسبية بمعنى أنه لا مجال للحديث عن أطر مطلقة للحكم على الفعل من حيث كونه حرًا أم غير ذلك.(١) وهو مفهوم متطور بمعنى أنه يتغير من حقبة تاريخية لأخرى. فنظر إلى الحرية في العصور البدائية باعتبارها دفاعًا عن الحياة عند مستواها البيولوجي. وتطور مفهومها ليصبح تعبيرًا عن التحرر من غضب القوى المجهولة، ذلك عندما عرف الإنسان الزراعة. وعندما شعر الإنسان

إهـداء

إلى من مهد لي طريق معرفة ماذا يعني القول بأن الإنسان حر.
إلى مـن فتـح لي الطريـق لمعرفـة مـن هـو الإنسـان.
إلى مـن جعـل البـحـث عـن الحـقيـقـة غـايـتـه.
إلى روح أستاذنا الأستاذ الدكتور عبد الغفار مكاوي
حباً وعرفاناً

(*) أستاذ الفلسفة السياسية المساعد بآداب بني سويف.

(١) ندره اليازجي. النقد الفلسفي للماركسية. القاهرة: بدون دار نشر. ١٩٦٣. ص١٠٩.

بذاتيته بدت معبرة عن التحرر من قيود المجتمع والأفكار التي تحد من ماهيته، وعندما شعر بإنسانيته راح يقاوم السلطة الإلهية التي ترتدي ثوب السياسة وذلك في العصر الوسيط. وعندما نشب الصراع بين المجتمعات عبرت عن قدرة مجتمع ما على التحرر من تلك القيود التي يفرضها عليه مجتمع آخر.

من هذا المنطلق لم تخضع الحرية لما نطلق عليه التعريف الجامع المانع وأصبحت موضع تعريفات عدة بلغة المناطقة، الأمر الذي عبر عنه روزنتال بقوله « ... استطاعت الحرية عبر التاريخ أن تخلص نفسها من إطار التعريفات وأن تتطور إلى واحد من المصطلحات القوية التي ليس لها وجود خارجي إلا ما يعطيه العقل الإنساني لها، وفي ذات اللحظة أصبحت موضع تعريفات متعددة»[١] وهذا ما حدا باشعيا برلين إلى القول بأن الحرية مصطلح شأنه شأن المصطلحات الأخرى كالسعادة والطبيعة والحقيقة، ذو تفسيرات شتى.[٢]

إن النسبية والتطور اللذان يتسم بهما مفهوم الحرية أدى إلى انقسام الفلاسفة إزاء هذه الإشكالية: فينظر إليها البعض باعتبارها مرادفة لحرية الفرد، على حين ينظر إليها البعض الآخر باعتبارها جماعية. ينظر إليها فريق من منظور مثالي، بينما ينظر إليها الآخر من منظور واقعي. يذهب البعض إلى أنها مرادفة للفوضى على حين يرى البعض الآخر أن وجودها ووجود القانون متلازمان. يتصورها البعض باعتبارها مرادفة للضرورة تاريخية كانت أم طبيعية، بينما يتصورها البعض الآخر باعتبارها واقفة على طرفي نقيض من الضرورة أيًا كان المعنى الذي ينسب إلى كلمة الضرورة.

وإذا ما تجاوزنا أبعاد الخلاف حول مفهوم كلمة الحرية وقصرنا حديثنا على الحقبة المعاصرة، حيث أفول المجتمع الاشتراكي واستقرار الأمر للمجتمع الرأسمالي على شتى المستويات المختلفة لأمكننا القول بأن استقرار الأمر للحرية الفردية أضحى أمرًا حتميًا، ومع ذلك أضحت أزمة نظام قائم يبحث عن الاستقرار والاستمرار ويخشى التغيير.

فلقد نضج الفكر البراجماتي وأصبح منهجًا للحياة معبرًا عن رؤية النظام، الذي اتخذ من هذا الفكر أداة لتبرير الوضع الكائن بالفعل من ناحية، وتفسير شتى جوانب الحياة المختلفة من الناحية الأخرى.

---

(١) محمد عصفور. الحرية في الفكرين الديموقراطي والاشتراكي. القاهرة، بدون دار نشر. ١٩٦١، ص ي.

(٢) اشعيا برلين. حدود الحرية. ترجمة «جمانا طلب». بيروت: دار الساقي. ١٩٩٢. ص١١.

هذا وقد أضحت الحرية الفردية مع الفكر البراجماتي أزمة تمثلت في تقديم الفكر البراجماتي تصورًا للحرية باعتبارها ضربًا من الميتافيزيقا.

هذا ويمكننا القول بأن القرن العشرين قرن أزمة الحرية الفردية، وما زاد من هذه الأزمة علاوة على النظم الاجتماعية، التطور العلمي والتكنولوجي السريع، والتحولات الاجتماعية على المستوى الداخلي والخارجي، التي تغذي بعضها البعض بفضل وسائل الإعلام الحديثة والمتطورة، والاتصالات المفتوحة بين الشعوب، مما جعل المواجهة أمر حتمي.

فأسباب هذه الأزمة ليست قاصرة على ذلك (عدم التواكب بين الحرية الفردية والتقدم العلمي) وإنما تعمدت القوى المهيمنة، التزاما بمصالحها، وحفاظًا على بقائها، أن تضاعف من طمس هذا المفهوم وإفراغه من مضمونه وتحريف معناه.

إن ما ترتب على ذلك تمثل في وجود صدع في الإنسان المعاصر حيث شعوره بأن مفاهيم التنوير في ضوء هذا الواقع المعاش ما هي إلا أحلام وأماني كاذبة. الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل شعر الإنسان بأن الإنسانية توشك على الانتحار.(١)

إن الأمر لم يقف عند حد إنكار الحرية الفردية والقيم المترتبة عليها، بل هناك من المفكرين من حاول الحط من الفرد كقيمة، وأنكر أصالته، وقال بوجوب الإقرار بموت الإنسان المستقل، وتحول المجتمع على يديه ليصبح مجتمعًا من القطيع. إنه عالم النفس الأمريكي بور هوس فرد ريك سكينر B F Skinner (١٩٠٤- ١٩٩٠)، الذي وظف علم النفس لنفي ذاتية الإنسان وسلبه حريته، أراد التأكيد على ما قاله بيرس وجيمس من أن الحرية اعتقاد ووهم، وأن الإنسان حيوان تجارب من ناحية، وأراد أن يحي ما قاله سان سيمون بوجوب إقامة المجتمع على أساس علمي من الناحية الأخرى.

ترى كيف برهن سكينر على موت الحرية الفردية وموت الإنسان المستقل من ناحية؟ وكيف أضحى المجتمع على يديه مجتمع قطيع من الناحية الثانية؟ وهل نجح في أن يحي ما نادى به سان سيمون وبرود ون وأوجست كونت من ناحية ثالثة؟.

إن الإجابة عن هذه التساؤلات تمثل جوهر بحثنا، من هذا المنطلق يمكننا القول بأن هذا البحث يدور حول خمسة محاور أساسية: يقدم لنا المحور الأول تعريفًا بسكينر، بينما يجيبنا

(١) شوقي جلال. العقل الأمريكي يفكر (من الحرية الفردية إلى مسخ الكائنات). القاهرة: سينا للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى. ١٩٩٧. ص١٤١، ص١٤٣.

المحور الثاني عما يعنيه سكينر بتكنولوجيا السلوك الإنساني، ويدور المحور الثالث حول كيفية برهنته على موت الحرية، بينما يوضح المحور الرابع كيف مات الإنسان الفرد عنده، أما المحور الخامس فيوضح ماهية المجتمع كما يراه سكينر، ويلي هذه المحاور الخمسة تعقيبًا شاملًا على فكر سكينر.

وإذا ما بدأنا مع المحور الأول لتسنى لنا القول بأن سكينر هو كاتب وعالم نفس أمريكي وُلد في العشرين من مارس عام ١٩٠٤ وتوفي في الثامن عشر ون أغسطس عام ١٩٩٠، وجاءت معظم كتاباته منصبة على علم النفس التجريبي، وأسس مدرسته في السلوكية، التي تنظر للسلوك الإنساني باعتباره نتيجة. هذا وقد وُلد سكينر لأب يعمل محاميًا هو وليم سكينر، ولربة منزل كانت على قدر كبير من النشاط والثراء، وكان له أخ يصغره بعامين يدعى إدوارد.

وإذا ما نظرنا إلى حياة سكينر لوجدنا أنها تنقسم إلى ثلاث مراحل أساسية: أولها تلك التي عني فيها سكينر بدراسة الآداب آملًا أن يصبح كاتبًا وأديبًا، ولكنه أدرك فشله في أن يصبح كذلك، وعلل هذا الفشل بعدم وجود من يمتلك القدرة على فهم ما يكتبه، ويصف هذه المرحلة من حياته بالمرحلة السوداء.

وتبدأ المرحلة الثانية مع طباعة كتاب راسل حول الفلسفة السلوكية عند عالم النفس الشهير جون واطسن، حيث وُجه اهتمام سكينر في هذه المرحلة لملاحظة وتحليل سلوك وأفعال المحيطين به، ولقد كانت هذه نقطة بداية المرحلة الثالثة من حياته حيث توجه صوب دراسة علم النفس، فدرسه في جامعة هارفارد، وحصل منها على درجة الدكتوراه في علم النفس عام ١٩٣١. وعمل بعد ذلك محاضرًا في جامعة مانوستا ثم الجامعة الهندية، ثم عاد في عام ١٩٤٨ ليعمل أستاذًا في جامعة هارفارد وظل كذلك إلى أن وافته المنية.

هذا وقد نال سكينر العديد من الجوائز في حياته، حيث قلده الرئيس جونسون عام ١٩٦٨ الوسام الذهبي للعلم، وحصل عام ١٩٧١ على الوسام الذهبي من اتحاد علماء النفس الأمريكيين، وفي عام ١٩٧٢ حصل على جائزة أفضل عالم إنساني من اتحاد العلوم الإنسانية الأمريكية [1].

(1) wikipedia(the free encylopedia. Redirected from.B.F.skinner. 10/05/2007. 13/05/2007. http://en.wikipedia.org

وإذا ما انتقلنا إلى اهتماماته لأمكننا القول بأن اهتمامه الرئيسي كان منصبًا على علم النفس حيث اقترن إسمه بمنهج تربية وتعليم الأطفال، واستخدم ما عرفُ باسم (آلة التعليم) التي فتحت أفاقًا واسعة في النظام التعليمي.(١)

هذا وينتمي سكينر إلى المدرسة السلوكية في علم النفس(*)، التي نظرت للإنسان باعتباره آلة بيولوجية تستجيب لما حولها من مثيرات فحسب، وأضحت قضايا التفكير والقيم والمشاعر والنوايا معها مجرد أمور هامشية في تفسير الظواهر الاجتماعية والسلوك الإنساني.(٢)

---

(١) شوقي جلال. العقل الأمريكي يفكر. ص١٤٣.

(*) لفظ في علم النفس وضعه واطسن في مقالة بعنوان (علم النفس كما يراه السلوكي)، وفي كتابه (السلوكية تمهيد لعلم النفس الموضوعي).

- كمال دسوقي. ذخيرة علم النفس. المجلد الأول. الدار الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة. ١٩٨٨. ص١٧٢.

وإذا ما نظرنا إلى السلوكية نظرة عامة لأمكننا القول بأنها حركة في علم النفس برز في إطارها عدد من العلماء أمثال هنترHunter، ولاشلي Lashaley، وهولت Holt، وكو Kuo، وجو ثري Guthrie، وايزنك Eyzenck، وفولبا J. Wolpe ... وغيرهم، واختلفت منطلقا تهم الفكرية، وتعددت المذاهب السلوكية داخل المدرسة، بل وكادت تصبح مدارس مستقلة بما لها من أسس فلسفية مختلفة، وتباينت بناء على ذلك تعريفاتهم للأفكار والمفاهيم. فلو سألت ما الذي نتعلمه؟ لأجابك بعضهم أننا نتعلم (استجابات) وقال آخر (بل ارتباطات بين المؤثر والاستجابة)، وهب ثالث قائلًا (لا بل توقعات)، وقال رابع (علاقات)، وقال خامس (كل هذا).

وإذا سألت كيف نتعلم؟ لتعددت الإجابات. فإذا زادت حيرتك وتبلبل فكرك من هذه المدارس العلمية التجريبية الدقيقة ومن إجاباتها المتناقضة للشئ الواحد وقلت ربما إذا سألت سؤالًا بسيطًا اتفقت إجاباتهم فسألتهم: ما المقصود بالتعزيز؟ لأندهشت من وفرة الردود المختلفة.

هذا وقد أضحى السلوك الإنساني في أذهان السلوكيين معادلات وتركيبات رياضية معقدة، واستخدموا صيغًا كصيغ القوانين المستخدمة في الرياضة التقليدية، وبنظرية الاحتمالات أخذوا يتنبأون بنتائج هذه القوانين في حالة تبدل مختلف المتغيرات.

google.com (ه. ايزنك. الشخصية والسياسة. عرض وتلخيص ونقد د. مرقص فايز. ابريل ١٩٨٠. ٢٠٠٧/٠٥/١٥.

- http:// www. Rakhawy.org

وبعبارة أعم إن المدرسة السلوكية نظرت للإنسان باعتباره آلة بيولوجية تستجيب لمل حولها من مثيرات. إسلام أون لاين (هل تموت الايدولوجيا في زمن العولمة. هبه رءوف عزت. ٢٠٠٧/٠٥/١٦.)

http: // www. Islamonline.net/arabic/mafaheem/2000/10/article 1.shtml

(٢) مركز الإشعاع الفكري للدراسات والبحوث (د. أحمد أبو ندى. الأيدولوجيا.. ودورها في صناعة العقل الإنساني. ٢٠٠٧/٠٥/١٥).

http://www.trcsr.com/doc_drasat/doc_32html

وبعبارة أخرى إن مهمة علم النفس لم تعد مع سكينر الغوص في أعماق النفس الإنسانية، وإنما البحث عن النظام الذي تسير وفقًا له الظاهرة النفسية[١].

هذا وقد أعلى سكينر في نسقه النفسي من التعلم، ويذهب إلى أنه لا يوجد ثمة شي من الممكن أن نقول أنه فطري، بل إن كل شي يكتسب من خلال التعلم، وعملية التعلم هذه ترتبط بالمحيط البيئي الذي يتحمل مسؤولية التعزيز والتدعيم.[٢]

وعلى الرغم من أن اهتمام سكينر الأول كان منصبًا على علم النفس، إلا أنه لا يمكننا إغفال البعد الاجتماعي الذي تمثل في روايته walden 2، التي حازت شهرة عالمية وبيع منها أكثر من مليون نسخة بعد طبعتها الأولى عام ١٩٤٨. ومن أهم كتبه في مجال الفكر الفلسفي كتابه (ما وراء الحرية والكرامة Beyond freedom and Dignity)، الذي يوضح من خلاله كيف تسوء الأمور إذا ما تحولت الحرية إلى تعويذة أو تميمة وظن الناس أنها حقيقة. إن هذا الكتاب كان بمثابة دعوة للناس لكي يحطموا إرثهم البالي ويقدم لهم وصايا جديدة. وبعد صدور هذا الكتاب امتلأت أعمدة الصحف والمجلات بالدراسات حوله. وأصبح سكينر مل الأسماع والأبصار والأذهان. وأعادت الصحف الكبرى وجميعها مملوكة لشركات عملاقة، نشر هذا الكتاب في صورة مسلسل وحلقات متتابعة على صفحاتها. وفعلت ذلك أيضًا أجهزة التلفزيون، حيث ظل هذا الكتاب موضوعًا لحوار طويل على شاشاتها.[٣]

أما على المستوى السياسي قدم لنا سكينر نظرية سياسية مؤداها أننا نتعلم السياسة كما نتعلم اللغة ويمكننا أن نطبق قوانين التعلم على السلوك السياسي كأي سلوك آخر.[٤]

إن سكينر بمفردات حياته واهتماماته المتنوعة كان موضوعًا للعديد من ردود الأفعال المتباينة: فقيل أنه أول عالم فاق نجوم السينما شهرة.[٥] ووصفته جريدة التايمز في العشرين

---

(١) الموسوعة الإسلامية(الروح وصفاتها. د/ مقداد يالجين. ١٥/٠٥/٢٠٠٧).
http://www.balagh.c0m/mosoa/tarbiah/nnorpmjd.htm

(٢) مجلة الوعي الإسلامي(كيف يكتب طفلك اللغة. العدد ٤٩٣. ٢٣/١٢/٢٠٠٦. ١٥/٠٥/٢٠٠٧).
http://alwaei.com/topics/current/article.php?sdd=3548

(٣) شوقي جلال. العقل الأمريكي يفكر. ص١٤٣، ص١٤٤.

(٤) google.com (ه.ايزنك. الشخصية والسياسة. عرض وتلخيص ونقد د/ مرقص فايز. ابريل ١٩٨٠. ١٥/٠٥/٢٠٠٧).

http://www.rakhawy.org.

(٥) شوقي جلال. المرجع السابق. ص١٤٣.

من سبتمبر عام ١٩٧٠بأنه من أكثر علماء النفس تاثيرًا، بل إنه ظل الأكثر تأثيرًا على الطلاب لبضعة عقود.

وذهبت جريدة الأخبار الأسبوعية News Week في ذات اليوم من ذات العام إلى القول بأن سكينر أعظم عالم نفس جادت به الأيام بعد فرويد.[١] وعلى طرفي نقيض من ذلك يسمه البعض بالجمود الفكري،[٢] ومن دعاة الردع على المستويين الداخلي والخارجي، والردع الخارجي أسبق لأنه بمثابة غطاء للردع الداخلي.[٣]

ويبرر أنصار القول بأن سكينر من دعاة الردع الداخلي قولهم هذا بما ذهب إليه من أن مهمة الأسرة الأساسية تتمثل في تعليم أبنائها أن الحضارة التي يحيون في غضونها هي خير وأفضل حضارة من أجل العمل على الحفاظ عليها واستمرارها.[٤] ويذهب فريق من نقاده إلى القول بأنه شمولي استبدادي[٥] من ناحية، وأنه من دعاة الخضوع من ناحية أخرى.[٦]

---

(1) FTR foundation for truth in Reality (the stimulus and the Response Acritique of B.F.skinner. Ayn Rand. 17/05/2007).
http://www.sntp.net/behaviorism/ayn_Rand_skinner.htm

(٢) الثورة (يومية سياسية) (ثقافة المقاومة أم مقاومة الثقافة. ديب علي حسن. ٢٠٠٦/١٢/١٠. ٢٠٠٧/٠٥/١٦).
http://www.alwehda.gov.sy

(٣) جريدة الزمان الدولية (المهمشون ليسوا نفايات بشرية- مغامرة العقل الأمريكي في العراق بين التطرف والاعتدال. عبد الكريم يحي الزيباري.٢٠٠٦/٠٨/٠٤. ٢٠٠٧/٠٥/١٦.
http://www.azaman.com

(٤) مجلة الفكر السياسي (التربية المدنية «دراسة في أزمة الانتماء والمواطنة في التربية العربية».د. عبد الله مجيدل. العدد ٢١. شتاء ٢٠٠٥. ٢٠٠٧/٠٥/١٦.
http://www.awu-dam.org

(5) wikipedia(the free encylopedia-Redirected from B.F.skinner.10/05/2007. 13/05/2007.
http://en.wikipedia.org

(٦) jeremiah project (الحجج المؤيدة للنظام العالمي الجديد. ٢٠٠٧/٠٥/١٥.
http://www.jeremiahproject.com

انظر حول حياة سكين واهتماماته:

- personality theories) B.B.Skinner 1904-1990. Dr.c.George Boeree. 16/05/2007.
http://webspace.ship.edu/cybore/skinner.html
- google.com(B.F.skinner foundation-Biography.17/05/2007.
http://www.bfskinner.org/bio.asp.20k
- google.com(B.F.skinner. 17/05/2007).
http://www.ship.edu/~cgbooree/skinner.html-22k =

ولكن أيًا كانت الانتقادات التي وُجهت له فإنه كان بمثابة النجم الساطع في سماء الفكر الأمريكي، والتساؤل الذي يطرح نفسه الآن يدور حول أي من هؤلاء يكون سكينر؟ لنترك محاور فكره تجيبنا عن هذا التساؤل، ونتساءل الآن ماذا يقصد سكينر بتكنولوجيا السلوك الإنساني؟.

يذهب سكينر بداية إلى أن الإنسان عندما يواجه مشكلة بعينها فإنه يلجأ إلى استخدام ما يتيقن من أجل أن يعمل من منطلق القوة، ويرى أن القوة في وقتنا الراهن لم تعد قوة بدنية وإنما هي قوة العلم والتكنولوجيا. وإذا كنا نفترض جدلًا أن العلم والتقدم التكنولوجي سيقودنا صوب الأفضل، إلا أن مل يخيب الآمال وفق ما يرى هو وقوع التكنولوجيا في خطأ متزايد.(١)

فلقد ترتب على التقدم الطبي زيادة أزمة الإسكان، وباتت الحرب أكثر رعبًا مع أسلحة الدمار الشامل، وأدى البحث عن الترف إلى تلوث البيئة لا إصلاحها. ومع ذلك فإن الإنسان أدرك ذلك الخراب أو لم يدركه يجد نفسه أمام حتمية ضرورية متمثلة في وجوب إصلاح هذا الدمار، ولكن كيف؟.

يرى سكينر أن الخطوة الأولى تتمثل في إدراك الإنسان طبيعة صعوبة المشكلة التي يواجهها، والوصول إلى معرفة أننا لسنا في حاجة فحسب إلى تطور تكنولوجي في العلوم الفيزيائية والكيميائية والطبية، لأنه حيثما يبدأ السلوك الإنساني تتوقف التكنولوجيا، لذا كان من الضروري إبداع تكنولوجيا للسلوك الإنساني تضاهي في القوة والدقة التكنولوجيا

=- Key theorists theories I psychology(the consequences of behavior determine the probability that behavior will occur again.B.B.Skinner.17/05/2007).
http://www.psy.pdx.edu/psicafe/key theorists/skinner.htm

- EncyloPEDia BRITANNICA online (B. Fskinner. p. 1. 17/05/2007)
http://www.britannica.com/eb/artical/q0681/4/BFskinner

- Bartleby.com(Skinner,Burrhus,Frederic.the columbia Encylopedia,six Edition.2001/05.17 /05/2007.
http://www.barthey.com/65/sk/skinner

- age-of-the/sage.org(B.F.skinner and Beyond Freedom and Dignity.17/05/2007.
http://www.age-of-the-sage.org/psychology/Skinner.html

(١) ب.ف.سكينر. تكنولوجيا السلوك الإنساني. ترجمة «عبد القادر يوسف»، مراجعة «محمد رجاء الدرني.» الكويت: سلسلة عالم المعرفة. العدد٣٢. اغسطس١٩٨٠. ص٥.

الفيزيائية والبيولوجية، ومن يظنون أن قيام هذه التكنولوجيا أمر ممكن وليس أمرًا مضحكًا وسخيفًا، قد يصابون بالهلع أكثر مما يشعرون بالطمأنينة. وإن دل ذلك على شي وفق ما يرى فإنما يدل على بعدنا عن فهم قضايانا الإنسانية بالمعنى الذي تفهم به الفيزياء والبيولوجيا ميادينها، كما يعبر عن عجزنا عن منع الكارثة التي يبدو أن العالم يتجه صوبها بشكل حتمي.(١)

ويقرر سكينر أن الإنسان في الماضي كان يفهم نفسه كما كان يفهم كل جزء آخر من عالمه، أما اليوم ففهمه لذاته أقل من فهمه لأي شي آخر. وبعبارة أخرى على الرغم من التقدم الذي أحرزته الفيزياء والبيولوجيا إلا أنه لم يحدث تطور مشابه في السلوك الإنساني، وعلى حد قوله: «... ليس للفيزياء والبيولوجيا اليونانية الآن سوى قيمة تاريخية، فلا أحسب أن عالمًا معاصرًا في البيولوجيا أو الفيزياء يتوجه صوب أرسطو طالبًا العون، ولكن محاورات أفلاطون لا تزال مقررة على الطلاب ويستشهد بها كما لو أنها تلقي ضوءًا على السلوك البشري. وما نحسب أن بمقدور أرسطو أن يفهم صفحة واحدة من الفيزياء والبيولوجيا الحديثة، ولكن سقراط وأصدقاءه لن يجدوا صعوبة في متابعة أحداث المناقشات الجارية في مجال الشؤون الإنسانية. وبعبارة أعم على الرغم من قطعنا خطوات هائلة في السيطرة على عالمي الفيزياء والبيولوجيا، إلا أن ممارستنا في الحكم والتربية وفي الكثير من أمور الاقتصاد لم تتحسن تحسنًا ملحوظًا.(٢)

والتساؤل الذي يطرح نفسه الآن يدور حول لماذا هذه الهوة السحيقة بين العلوم الطبيعية والسلوك الإنساني.؟

يجيب سكينر عن هذا التساؤل موضحًا أن الأدوات والمناهج التي تستخدمها الفيزياء والبيولوجيا ذات تعقيد متكافئ مع الموضوع، الأمر الذي لا تجد له وجودًا عند الحديث عن السلوك الإنساني من ناحية، وأدواته ومناهجه من الناحية الأخرى.(٣)

أضف إلى ذلك أننا لم نعد نعن بدراسة أسباب السلوك، أو أبعاد العلاقة بين العلة والمعلول، وإنما ينسب السلوك الإنساني إلى قوى تقيم في داخل الإنسان.(٤)

---

(١) المرجع السابق. ص٦، ص٧.
(٢) ----------. ص٧.
(٣) ----------. ص٨.
(٤) ----------. ص٩.

وبعبارة أخرى إن السلوك البشري لا يزال يعزى إلى الطبيعة الإنسانية، بل وهناك سيكولوجيا شاملة للفروق الفردية، يقارن بموجبها الناس ويوصفون على أساس السمات الشخصية، القابليات، والقدرات.(١)

ويقرر سكينر أن كل واحد تقريبًا ممن يهتمون بالشؤون الإنسانية، مثل العالم السياسي، الفيلسوف، الأديب، عالم الاقتصاد، عالم النفس، عالم اللغة، عالم الاجتماع، فقهاء الدين، عالم الأجناس البشرية، المربي، والطبيب النفسي يستمر في الحديث عن السلوك البشري بهذه الطريقة التي يسمها سكينر بالقبل علمية prescientific.(٢) لأننا لا نتساءل عن لماذا يسلك الإنسان هذا السلوك أو ذاك، ولكننا نحاول أن ننسب سلوكه إلى الماضي أو إلى شخص آخر، وعلى حد قوله إن وظيفة الإنسان الداخلي تتمثل في أن يقد تفسيرًا من شأنه ألا يفسر بدوره.(٣)

هكذا نلمح نقد سكينر للنظريات التي تفسر السلوك الإنساني على أساس من القدرات الداخلية، أو إرجاع السلوك لما هم مجهول، ومحاولته تفسير السلوك الإنساني على أساس علمي، بحيث يصبح من الواجب على التحليل العلمي أن يشرح السلوك لدى الإنسان بوصفه جهازًا ماديًا يتعلق بالظروف والأحوال التي تطور الجنس البشري في ظلها، والظروف التي يعيش في كنفها الفرد. وبعبارة أعم أن السلوك الإنساني نتيجة لامتزاج الخبرات السابقة بالمواقف التي يعيشها الفرد.

من هذا المنطلق يذهب إلى القول بأن عصرنا لا يعلني من القلق ولكن من الحوادث والجرائم والحروب وغيرها من الأشياء الخطيرة والمؤلمة التي كثيرًا مل يتعرض لها الناس. ويترك الشباب الصغار المدرسة ويرفضون الالتحاق بعمل، ولا يتزاملون إلا مع أترابهم، لا لأنهم يحسون بالاغتراب، وإنما بسبب البيئات الاجتماعية الفاسدة في البيوت والمدارس والمعامل وغيرها.

وعلى هذا فتكنولوجيا السلوك الإنساني التي يتحدث عنها سكينر تتمثل في إتباع المسار الذي اتخذته الفيزياء والبيولوجيا بالالتفات بشكل مباشر للعلاقة بين السلوك البئية وإهمال الحالات الذهنية المزعومة.(٤) وهذا ما حدا به إلى القول بأنه قد بات من الجلي الآن الأخذ

(١) ----------. ص١٠.
(٢) ----------. ص١١.
(٣) ----------. ص١٤.
(٤) ----------. ص١٥.

بالحسبان ما تفعله البيئة بالكائن الحي، ليس فقط قبل أن يستجيب لتأثيرها، بل بعد ذلك أيضًا حيث يشكل السلوك ويصان بنتائجه. عندما ندرك هذه الحقيقة يمكننا أن نصوغ التفاعل ما بين الكائن الحي والبيئة بطريقة أكثر شمولًا.

هكذا يتضح لنا أن ما يرمي إليه سكينر من حديثه عن تكنولوجيا السلوك الإنساني يتمثل في النظر إلى السلوك الإنساني لا باعتباره إبداعًا فرديًا، وإنما هو نتاج للبيئة. ويتسق سكينر هنا مع فكر المدرسة السلوكية، التي ردت علم النفس إلى علم وظائف الأعضاء، وأنكروا أي فارق كيفي بين الإنسان والحيوان.[١] حيث يعد سلوك الإنسان شأنه شأن فئران التجارب ليس سوى ردود أفعال حركية، ولا حاجة بنا إلى افتراض شي اسمه الوعي أو الشعور أو الخيال أو الإرادة. وبناء على ذلك يتسنى لنا التحكم في السلوك الإنساني ليس على المستوى النفسي فحسب، وإنما نتحكم في كل أنشطته السياسية والاقتصادية والاجتماعية،[٢] ومرد ذلك وفق ما يرى سكينر لأن مشكلات المجتمع نتاج ذات الفرد لأن النفس شريرة لا عقلانية، وإذا ما قومنا سلوك الفرد بحيث يرضى ويستسلم صلح حال المجتمع.[٣]

وإذا ما تساءلنا ما هي الغاية التي يهدف إليها سكينر من بحثه عن تكنولوجيا للسلوك الإنساني؟. لاتضح لنا أنه يريد القول بأننا مخدوعون إذ نتصور أن المرء حر قادر على اختيار أفعاله أو التحكم فيها. وإذا كانت الفعالية للبيئة وحدها فلم يبق إلا التحكم في السلوك من الخارج، خاصة وأن المجتمع كعلاقات لا وجود له، وإنما الموجود بالفعل هو تجمع أفراد الجنس كجماعة من الأفراد، وكذلك الحال بالنسبة للأسرة أو القبيلة، حيث الفرد هو ما يتصرف ويتغير، والبيئة هي المسؤولة عن تطور الجنس البشري.[٤] وبعبارة أعم أن لهذه التكنولوجيا هدف أيديولوجي مرسوم متمثل في إعادة صياغة أيديولوجيا الأفراد[٥].

وفي حقيقة الأمر أن حديث سكينر عن تكنولوجيا السلوك الإنساني كان موضع ردود أفعال متباينة. فيذهب البعض أنه أراد كشف ستر ذلك الإنسان الذي وصفه الكاتب الكسيس

(١) شوقي جلال. المرجع السابق. ص١٦٠.
(٢) المرجع السابق. ص١٦١.
(٣) ----------. ص١٧٣.
(٤) ----------. ص١٦٤.
(٥) ----------. ص١٩٧.

كاريل بأنه حقيقة مجهولة تمشي وسط موكب من الأشباح.[١] ويذهب فريق ثان للقول بأن ما حدا به للبحث عن تكنولوجيا السلوك الإنساني هو تساؤله: إذا عرفنا أن لكل آلة طاقة تحركها ونظامًا تعمل بموجبه فكيف يعمل العقل الإنساني؟.[٢]

وإذا كان الفريقان سالفا الذكر يبحثان عن تبرير لما قدمه سكينر فهناك العديد من الأقلام التي خرجت موجهة سهام النقد لهذه الفكرة: فيذهب البعض إلى أن سكينر بحديثه عن تكنولوجيا السلوك الإنساني يبرهن على أنه خادم مطيع للثقافة الأمريكية، التي أغفلت أبعادًا عدة من الإنسان، وما يذهب إليه سكينر من الدعوة إلى تغيير العقول وهندسة الثقافة وغلق الاعتقادات هو ذاته ما تعتمده العولمة منهجًا ونهجًا. فإذا كانت أمريكا تعمل اليوم من خلال العولمة عملًا مزدوجًا يهدف إلى صناعة الثقافة المطلوب رواجها من ناحية، وتشويه الثقافات الأخرى في عقول أبنائها من الناحية الأخرى، فذلك ما يحدد الأسلوب الذي تعتمده في الهيمنة على العقول.[٣]

ويذهب فريق ثان إلى أن ما يريده سكينر من تكنولوجيا السلوك الإنساني هو بلوغ نوع من التحكم في السلوك الإنساني كما نتحكم في مسار قمر صناعي نطلقه إلى الفضاء، الأمر الذي يودي إلى تحول الإنسان إلى إنسان آلي، ويصبح السلوك بمثابة إفراز هرموني يمكن التحكم فيه.[٤]

ويذهب فريق ثالث إلى أن تكنولوجيا السلوك الإنساني التي ينادي بها سكينر، وتلتزم بها نظم حاكمة في العالم الثالث كمنهج في السلطة، استوعبت أسوأ سمات الفكر الفلسفي والاجتماعي الذي ساد في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، الذي وصفه أصحابه

(١) د. خالد جبلي. الثورة العلمية الحديثة والإيمان.١٤/٠٥/٢٠٠٧.
http://www.iraKer.dk/althawra.htm

(٢) الشرق الأوسط (نحو زراعة الدماغ. العدد ٨١١، ١/٢/٢٠٠١. ١٥/٠٥/٢٠٠٧).
http://www.asharqalawsat.com/leader.asp?section=3&issue=81148

(٣) النبأ (وليد خالد احمد حسن، الاستعلائية والعدوانية تجاه الآخر في الخطاب الثقافي الأمريكي. العدد٧٢. تشرين الأول ٢٠٠٤. ١٤/٠٥/٢٠٠٧).
http://www.annabaa.org/nbahome/nba72/estealaea.htm

(٤) منتديات الحصن النفسي (البرمجة اللغوية العصبية أو الهندسة النفسية. د. خالد جلبي. ٢٢/٠٤/٢٠٠٤. ١٥/٠٥/٢٠٠٧).
http://www.bafree.net

بعبارات مماثلة «الهندسة الاجتماعية»، «التكنولوجيا الاجتماعية»، «تكنولوجيا التحكم في المجتمع»، و«تكنولوجيا التحكم في الفكر والمعتقدات». وتولدت كل هذه الأفكار الخاصة بحكم المجتمع عن الأزمة الأيديولوجية السياسية العميقة التي أثبتت عجز كل مؤسسات الحكم التقليدية في أوربا عن إثبات جدواها وصلاحيتها لإنقاذ الحضارة الغربية في عصر الانحسار، والمقصود بها هنا حضارة ولى عهدها وبات لزامًا الارتقاء إلى حضارة أخرى أرقى إنسانيًا. كما أثبتت عجزها عن مواجهة سخط الجماهير من واقع اجتماعي تطحنه فوارق ومظالم اجتماعية، وجاء سكينر بتكنولوجيا السلوك الإنساني لإعانة الصفوة الحاكمة على تصميم وصياغة ثقافة المجتمع والتحكم في سلوك الأفراد، ووضعهم في قوالب تحقق مصلحتها.[١]

ويأتي فريق رابع ليكون أكثر حدة في نقوه لسكينر، حيث وصفه بأنه عالم نفس بلا روح.[٢] وذهب تشو مسكي إلى أن ما قدمه سكينر حول تكنولوجيا السلوك الإنساني منافيًا للعقل[٣]، وذهب في موضع آخر للقول بأن سكينر مدافع عن الفكر الاستبدادي، إنه يبدو مهاجمًا للقيم الإنسانية، فاستبدل بالحرية السيطرة وبالليبرالية الفاشية.[٤]

وإذا ما تجاوزنا أبعاد ذلك الخلاف حول هل تكنولوجيا السلوك الإنساني لسكينر إيجابية أم سلبية، وتساءلنا إذا ما افترضنا جدلًا التحقق الفعلي لها فمل هي النتائج التي يمكن أن تترتب عليها.؟

---

(١) New Page2 (التفريغ الأيديولوجي والغربة. ١٥/٠٥/٢٠٠٧).
http://www.iraq 4all.dk/Book/Hade/usa/12.htm

(2) FTR foundation for truth in Reality(the stimulus and the Response Acrtique of B.F.Skinner.ayn Rand.17/05/2007.
http://www.sntp.net/behaviorism/ayn_rand_skinner.htm

وانظر:

Ascience and odyssey(people and Discoveries: B.F.skinner.17/05/2007.
http://www.pbs.org/wgbh/aso/data bank/enyries/bhskiin.html

(3) google.com (Areview of B.F. skinner,s veral Behavior. chomsky, Noam.1959. 17/05/2007).
http://cogprints.org/1148/

(4) google.com(the case aginst B.F.skinne. Noam chomsky. The New york Review of Boo ks,December30,1971.17/05/2007.
http://www.chomsky.info/articles/19711236.htm

وتأتي لنا الإجابة صريحة موضحة أن أول هذه النتائج ستتمثل في موت الحرية، فكيف يبرهن سكينر على موت الحرية؟ وبصياغة أخرى للتساؤل ماذا يعني القول بأن الحرية قد ماتت عند سكينر؟.

يقرر سكينر بداية أن كل الكائنات الحية تعمل على تحرير نفسها من العلاقات والاتصالات الموذية، ويرى أن هذا الشكل من أشكال الحرية نتيجة لما يسمى بالأفعال المنعكسة ويصفه بالشكل البسيط للحرية، الذي يتمثل في أن الإنسان عندما يعطس يخلص مراته التنفسية مما هو مؤذي لها. وعندما يتقيأ فإنه يحرر معدته من الطعام الغير قابل للهضم أو الفاسد. وإذا ما صعدنا الأمر لأمكن القول بأن الناس عندما يحبسون يكافحون بغضب وغيظ حتى يحرروا أنفسهم، وحينما يهددهم خطر يهربون من مصدر الخطر أو يهاجمونه.

ويوضح سكينر أن هذا الشكل من أشكال الحرية يعتبر غريزيًا مثله مثل التنفس وهضم الطعام، وعلى حد تعبيره هو «الخاصية البشرية الطبيعية الموروثة». ويذهب إلى أن دافع الإنسان لإتيان هذه الأفعال ليس حب الحرية، وإنما هي أشكال سلوك أثبتت جدواها في إنقاص التهديدات المتعددة التي تواجه الفرد، ومن ثم الجنس البشري في سياق التطور.(١)

يذهب سكينر إلى أن السلوك يلعب دورًا أكبر في إضعاف المثيرات الضارة حيث يكون ثمرة لما يسميه بعملية التطبيع الفعالة operant conditioning، فمن المرجح وفق ما يرى أن يتكرر هذا السلوك، وتسمى النتيجة ذات الأثر معززًا yeinforcer مثل اعتبار الطعام معززًا للكائن الحي الجائع، ومن ثم فإن أي شي يفعله الكائن ثم يتبعه الحصول على الطعام أدعى إلى التكرار كلما كان الكائن الحي جائعًا، وهذا ما يطلق عليه المعزز الإيجابي.

ويوضح أن المعززات ليست إيجابية بشكل مطلق بل هناك ما يطلق عليه المعززات السلبية. ويسمها بالبغض لأنها مرادفة لما تُعرض عنه الكائنات الحية. وبعبارة أخرى إنها مرادفة للهروب، ويقر بأن الحرية المرادفة للتحرر نتيجة للمعززات السلبية «... إن قدرًا كبيرًا من التكنولوجيا المادية هو نتيجة هذا النوع من الكفاح لأجل الحرية. لقد قام الناس عبر القرون وبواسطة طرائق غريبة، ببناء عالم عاشور فيه أحرارا نسبيًا من عدة أنواع من المثيرات الضارة أو التي تهدد بالأذى - مثل الارتفاع أو الانخفاض الشديد في درجة الحرارة-

(١) سكينر. تكنولوجيا السلوك الإنساني. ص٢٥.

ومصادر العدوى- والعمل الشاق الخطر، وحتى من تلك المثيرات الصغيرة البغيضة التي تدعى مشاق الحياة أو متاعبها».[١]

يذهب سكينر إلى القول بأن الكفاح من أجل الحرية بمعناها السالف الذكر (الهروب) يكون أكثر عندما تكون الظروف البغيضة من صنع الآخرين. فوفق ما يرى هناك بعض الناس يكونون منفرين دون أن يكون لهم يد في ذلك. كأن يكونوا خطرين، ناقلين للعدوى، غلاظ... إلخ، ويهرب المرء منهم لأنهم سيؤذونه بدون قصد، والأشد خطورة من ذلك هم أولئك الذين يكونون كذلك بمحض إرادتهم، أي أنهم يعاملون الناس بأسلوب منفر وهم يدركون ما يفعلون.

ويذهب إلى أن معظم التنسيق الاجتماعي في الأخلاق والدين والسياسة والاقتصاد والتربية والعلاج النفسي والحياة العائلية يقوم على هذا المبدأ (مبدأ المعاملة البغيضة).

فمراقب العبيد يضرب العبد بالسوط كلما توقف عن العمل، ومن اجل أن ينجو من الضرب عليه ممارسة العمل وفي ذلك تعزيز لسلوك مراقب العبيد. وكذلك يهدد المدرس التلاميذ بالضرب أو الرسوب إذا لم يعيروه الاهتمام، فإذا فعلوا هربوا من تهديده، وفي ذلك تعزيز لهذا التهديد.

وعلى هذا يتضح لنا أن الإنسان الحر في الحرية المرادفة للهروب وفق ما يرى سكينر هو من يخضع للأوامر لا من ينشد مناقشتها أو التمرد عليها، وبعبارة أخرى إنها مرادفة لسلب الإنسان إرادته.

يذهب سكينر إلى أن الشكل الثاني للحرية الفردية يتمثل في أن يضع الإنسان نفسه بعيدًا عن تلم المشاكل التي تؤدي إلى خضوعه، فقد ينجو الشخص من الرق حين يهاجر أو يخرج على الحكومة، أو يهرب من الجيش، أو يصبح مرتدًا عن دينه، أو يتهرب من أداء واجب مفروض عليه، أو يهجر البيت؟

أما الشكل الثالث وهو ما يسميه سكينر بالشذوذ فيتمثل في أن النجاة تتبلور في الهجوم على من ينظمون ويوجدون الظروف المنفرة، والعمل على إضعاف قوتهم أو تدميرها. فقد نهاجم من يضيقون علينا أو يتسببون في إزعاجنا كما تهاجم الأعشاب الطفيلية الحديقة.[٢]

(١) المرجع السابق. ص٢٦.
(٢) ----------. ص٢٧.

يقرر سكينر أن خصائص الإنسان الطبيعية الموروثة تعمل على دعم هذا النوع من الكفاح في سبيل الحرية «... حينما يعامل الناس بجفاء فإنهم يميلون إلى التصرف بعدوانية، أو إلى الاعتزاز بأية إشارات تدل على كونهم قد أحدثوا خرابًا عدوانيًا».(١)

ويذهب إلى أن هذا الميل العدواني من الباحث عن التحرر لا يوجه بالضرورة صوب من سلبه حريته، بل ربما يوجه صوب أي كائن بشري آخر. ولعل سكينر هنا قدم لنا دون أن يدري تحليلًا مسبقًا لردود أفعال الولايات المتحدة الأمريكية بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، حيث حملت لواء العدوانية على كل البشر.

هكذا نخلص إلى القول بأن الحرية عند سكينر مرادفة للتحرر من الظروف البغيضة التي يعيشها الناس على كافة المستويات المختلفة من خلال العمل على تغيير سلوكهم.

من هذا المنطلق يذهب إلى أن تفسير الحرية لا يتأتى من خلال الفلسفة، لأن الفلسفة تعتبر من الأسباب الداخلية التي تحتاج إلى تفحص و إمعان. فنقول إن شخصًا ما يتصرف بطريقة معينة لأن له فلسفة، ولكننا نستنتج الفلسفة من السلوك، لذلك لا يمكننا استخدامها بوصفها تفسيرًا بأية طريقة مرضية، على الأقل لا نستطيع أن نفعل ذلك إلى أن تفسر الفلسفة بدورها. وذات القول ينطبق على أدب الحرية لأنه يركز على الظروف البغيضة التي يعيش الناس في ظلها، ربما بمقارنتها بالظروف والأحوال في عالم أكثر حرية. كما أنه يحدد أولئك الذين على المرء أن ينجو منهم أو عليه أن يعمل على الهجوم عليهم و إضعاف قوتهم. فالأنذال المميزون في الأدب وفق ما يرى سكينر هم الطغاة، الرهبان، الجنرالات، الرأسماليون، المعلمون، المتشددون، والآباء المتسلطون.(٢)

يوضح سكينر أن أدب الحرية يصف أساليب العمل، ولا يعنى كثيرًا بالنجاة أو الهروب، ربما لأن الإرشاد والنصيحة ليست مطلوبة، وعوضًا عن ذلك يؤكد الأدب وفق ما يرى على كيفية إضعاف القوة المتسلطة وتدميرها. فينبغي الإطاحة بالطغاة، أو نفيهم من غير محاكمة، أو اغتيالهم، كما ينبغي إثارة الشكوك في شرعية الحكومة.(٣)

---

(١) ----------. ص٢٨.

(٢) ----------. ص٢٩.

(٣) نفسه. ص٢٩.

ولكن التساؤل الذي يطرح نفسه الآن يدور حول هل يبقى الطامعون في التحكم والسيطرة ساكنين؟.

إن إجابة سكينر عن هذا التساؤل بالنفي، حيث يوضح أن الحكومات تجعل النجاة مستحيلة من خلال حظر السفر أو توقيع العقوبة الصارمة على المرتدين أو الإلقاء بهم في السجون، وهي تحتفظ بالأسلحة وغيرها من مصادر القوة بعيدًا عن الثوريين، كما أنها تدمر الأدب المكتوب عن الحرية، وتسجن أو تقتل من ينقلونه شفاهة، لذلك فإذا ما أريد النجاح للكفاح من أجل الحرية فلا بد من تكثيفه.

هكذا يتضح لنا أن مهمة أدب الحرية مع سكينر لا تتمثل في إتيان الفعل، وإنما العمل على تغيير الحالات الذهنية والمشاعر بحيث تصبح الحرية مرادفة لأن تستحوذ عليك فكرة الحرية أو الشعور بها.

فالإنسان يفر من سلطة المتحكم أو يعمل على تدميرها من أجل أن يشعر بالحرية، وحينما يشعر بها ويصبح بإمكانه أن يعمل ما يشاء، فإن أدب الحرية لا يوصيه بالقيام بأي عمل ولا يملي عليه سوى البقاء على أهبة اليقظة حتى لا تعود السيطرة والتعسف.

مما سبق يتضح لنا أن الحرية الفردية كانت نتيجة لحياة الإنسان في غضون المعزز السلبي، ترى أستظل كذلك إذا ما تحولنا من المعزز السلبي إلى المعزز الإيجابي؟.

يجيب سكينر عن هذا التساؤل موضحًا بداية أن المقصود بالمعزز الإيجابي هو أن تستبدل الجهات المعوقة للحرية بالأسلوب البغيض أسلوبًا ليس كذلك، كأن يعلم الوالد الحاذق ابنه سلوكًا حسنًا بدلًا من أن يعاقبه على سلوك سيء، وتنتقل المؤسسات الدينية من التهديد بنار جهنم إلى التأكيد على حب الله، وتتحول الحكومات من العقوبات إلى الإغراء.[١]

ويذهب سكينر إلى أن خطورة التعزيز الإيجابي أشد وطأة من التعزيز السلبي «...الاستحسان والمودة الحافزان اللذان كثيرًا ما يحث بهما الآباء والمعلمون على حل مشكلات السلوك هما استحسان ومودة مزيفان.»[٢]

(١) المرجع السابق. ص٣١.
(٢) ---------- ص٣٢.

إذا كان سكينر في الصفحات السابقة قد وجه سهام النقد للحرية الفردية باعتبارها مرادفة للهروب أو الانسحاب أو الهجوم من ناحية، وباعتبارها مرادفة للحالة الشعورية من الناحية الأخرى، فإنه يوجه الآن نقده للحرية باعتبارها مرادفة للرغبة. فيوضح أن الرغبة في شي ليست شعورًا، وليس الشعور هو السبب الذي يجعل المرء يتصرف للحصول على ما يريد، بل هناك بعض من الحالات الطارئة تزيد من احتمال قيام السلوك، وفي الوقت نفسه تخلق ظروفًا يمكن الإحساس بها. وعلى هذا فالحرية هي الحالات الطارئة التي تعزز السلوك، وليست ضحية المشاعر المنبثقة عن تلك الحالات.(١)

إن الحرية الفردية في أبسط معانيها مرادفة للتحرر من السيطرة، الأمر الذي يرفضه سكينر موضحًا أنه لو خلا الأمر من التعميم الذي لا مبرر له والقائل بأن جميع أنواع السيطرة خطأ، لوجب علينا التعامل مع المحيط الاجتماعي بنفس البساطة التي نتعامل بها مع المحيط غير الاجتماعي. وبالرغم من أن التكنولوجيا قد حررت الناس من بعض الملامح البغيضة للبيئة، فإنها لم تحررهم من كل البيئة. إننا نسلم بحقيقة أننا نعتمد على العالم من حولنا، ونعمد ببساطة إلى تغيير طبيعة هذا الاعتماد. وبنفس الطريقة، وفي سبيل جعل البيئة الاجتماعية خالية قدر ما أمكن من المثيرات البغيضة فإننا لا نحتاج إلى تدمير تلك البيئة أو الفرار منها. إن كفاح الإنسان في سبيل الحرية ليس ناجمًا من إرادة الحرية أو عن الرغبة في التحرر، بل يعود إلى بعض العمليات السلوكية الخاصة بالكائن البشري والتي من أهم نتائجها تجنب ما يعرف بالملامح البغيضة في المحيط أو النجاة منها.(٢)

هكذا يتضح لنا أن سكينر في نقده للحرية الفردية اصطنع لها معنى خاص هو أقرب للتحلل من القيود التي يضيق بها صاحب الفكر الرومانسي. حيث إن الحرية وفق ما يرى صفة يسبغها الواقع الخارجي على الإنسان، فالفرد الحر هو من يعيش في بيئة حرة بمعنى بيئة بلا عوائق. إن الإنسان والكائنات الحية الدنيا في هذا سواء، إذ تعمل جميعا على تحرير نفسها من العلاقات والاتصالات المؤذية، وهذه كلها أمور تجري على المستوى الحسي المباشر.

---

(١) ----------. ص٣٥

وانظر:

الفوانيس: د. السيد نجم. الحرية وأدب المقاومة. ٢٠٠٦/٠٨/١٥. ٢٠٠٧/٠٥/١٦.

http://www.alfawanis.com/Kotab/articles.phb?id=36

(٢) سكينر. تكنولوجيا السلوك الإنساني. ص٣٨.

إن الحرية الفردية باعتبارها مرادفة للتحلل من القيود أضحت سلوكًا هروبيًا. تحولت إلى منهج لا يدفع إلى الثورة من أجل التغيير، بل الاستسلام لسطوة النظام القائم.[١] وعلى حد قول سكينر»... أن تكون عبدًا واعيًا لعبوديته أفضل من أن تكون عبدًا جاهلًا وسعيدًا.[٢] وعلى هذا فالحرية الفردية عند سكينر فوضى ومتع وملذات حسية لإنسان هو حيوان بطبيعته وممارساته السلوكية.[٣] ويتضح لنا هنا مدى تأثره بأبيقور والأبيقورية، التي حولت اللذة الحسية العاجلة إلى نوع من السعادة النفسية، وأحالت مذهب اللذة إلى مذهب في المنفعة يرى المثل الأعلى في طلب أكبر قسط من اللذات يبقى مدى الحياة.[٤]

وعلى هذا فتخلص الإنسان من وهم الحرية عند سكينر مرادف لتخلصه من غرائزه والخضوع لما يسمى بالمشاعر، التي تعتبر وفق ما يرى مصدرًا للعنف، حيث يذهب إلى أن العنف هو الاستخدام غير المشروع للقوة ويبدأ من البرمجة الذهنية واستيلاء مشاعر الكراهية، ويقول في ذلك صراحة «... تبدأ الحروب في عقول الناس وهناك شئ انتحاري في الإنسان، ربما غريزة الموت، تؤدي إلى الحروب.[٥] وبعبارة أخرى إن العنف عند سكينر شجرة خبيثة جذورها الكراهية وأغصانها الخوف وثمرتها الجريمة.[٦]

وفي حقيقة الأمر إن نظرة سكينر هذه للحرية ترجع لانتمائه إلى النزعة المحافظة التي سادت النصف الثاني من القرن العشرين وهي حقبة رواج فكر سكينر. حيث سعى هذا الاتجاه ممثلًا في ارفنج كرستول Irving Kirstol الأستاذ بجامعة نيويورك وفرد يمان إلى تقديم تصور جديد للحرية يهدف إلى تجريدها من أي محتوى آخر غير تبرير الملكية الخاصة والمشروع الرأسمالي الحر.

---

(١) شوقي جلال. العقل الأمريكي يفكر. ص١٥٢، ص١٥٣.

(٢) سكينر. تكنولوجيا السلوك الإنساني. ص٣٥.

(٣) شوقي جلال. المرجع السابق. ص١٥٣.

(٤) ه.سد جويك. المجمل في تاريخ علم الأخلاق. ترجمة» توفيق الطويل، عبد الحميد حمدي". الجزء الأول. الإسكندرية: دار نشر الثقافة. الطبعة الأولى. ١٩٤٩. ص٢٣.

(٥) مؤسسة الذاكرة العراقية (صبحي درويش. نحن بحاجة إلى غاندي جديد. ٢٠/٠٤/٢٠٠٧. ١٤/٠٥/٢٠٠٧).

http://www.iraqmemory.org/inp/view.asp?ID=659

(٦) أخبار الشرق(معقل زهور عدي.ثقافة اللاعنف. ١٩/١١/٢٠٠٥. ١٥/٠٥/٢٠٠٧.)

http://www.thisissyria.net/2005/11/19/levant3.html

والتساؤل الذي يطرح نفسه يدور حول لماذا نهج سكينر خاصة والمحافظين الجدد عامة هذا النهج؟.

وتأتي الإجابة متمثلة في القول أن الغاية من هذا الفعل هي توطيد أسس النظام القائم بالفعل، حيث يصف للحكام الطريق الذي يستطيعون من خلاله السيطرة على مواطنيهم، المتمثل في إغراقهم في الملذات، ولنا أن نتساءل كم من حكومات أفادت من وراء إغراق شعوبها في الملذات، وكم كان الثمن؟.[١] وبعبارة أخرى أن الخوف من شيطان العدالة الاجتماعية والتغيير الاجتماعي، أو الخوف من يقظة شعوب العالم الثالث وبحثها عن نفسها وعن مكانة لها بين الشعوب المتقدمة هو ما دفع مفكري الولايات المتحدة الأمريكية إلى تشويه أسس الفكر الاجتماعي، وإرسال رسالة لبلدان العالم الثالث تلقى رواجًا بين ضيقي الأفق من أبنائه مفادها أن الظلم وعدم المساواة في فرص الحياة قدر وظاهرة طبيعية.[٢] ونلمح هنا سكينر يحي الفكر السياسي الروماني الذي كان يستخدم إباحة كل أنواع اللذات لتغييب العقل الجمعي.[٣]

وبعبارة أعم إن ما قدمه سكينر وأنصار الاتجاه المحافظ هو بمثابة تبرير للسلوك البيروقراطي للنظام السياسي القائم في الولايات المتحدة الأمريكية، فإذا كانت حرية الفرد وكرمة الإنسان هما ركيزة كل نهضة وقدس أقداسها، فلا غرابة في أن تكون هذه القيم هي الهيكل الذي يعمد إلى هدمه مفكرو النزعة المحافظة في عز سطوة الولايات المتحدة وسلطانها العالمي.[٤]

ويظل معنا تساؤل حائر ماذا يعني القول بأن الإنسان حر عند سكينر؟ وهل سلم دعاة الحرية الفردية بما قاله سكينر؟.

يجيب سكينر عن الجزئية الأولى من التساؤل موضحًا أن الإنسان حر في أن يفعل ما يشاء طالما أنه لا ينشد سوى الأمور التي برمجها لهم زعماؤهم وأولوا المر منهم.[٥] أما الجزئية الثانية

(١) شوقي جلال. المرجع السابق. ص١٥٣، ص١٥٤.

(٢) google.com (سكينر، وهم الحرية ومجتمع القطيع-٢. ١٥/٠٥/٢٠٠٧).
http://www.iraq4all-dk/Book/Hade-usa/12.htm

(٣) زكي شنودة. العالم قبل المسيح. القاهرة: مكتبة الثقافة المسيحية.١٩٥٦. ص١٣٩.

(٤) New Page2 (التفريغ الأيديولوجي والغربة. ١٥/٠٥/٢٠٠٧.)
http://www.iraq4all.dk/Book/Hade-usa/12.htm

(٥) الثورة (يومية سياسية) (ديب علي حسن. من راندا إلى بولتون...مثقفون في جرار العسل المر. ١٣/٠٦/٢٠٠٦. ١٥/٠٥/٢٠٠٧).

http://thawra.alwehda.gov.sy

من التساؤل فيجيب عليها موضحًا أن هناك بعض المقاومة من أنصار الحرية الفردية ولكنها شبيهة بالمقاومة التي يبديها الجيش المنهزم.[١]

على الرغم من رفضنا ما يذهب إليه سكينر من القول بموت الحرية الفردية إلا أننا نتساءل ألا يحوي قوله هذا من ناحية ومناداته بتكنولوجيا السلوك الإنساني من الناحية الأخرى ثمة شئ إيجابي؟.

أعتقد أن الإجابة عن هذا التساؤل بالنفي لأنه عندما بدأ يتحدث أقر بأننا أمام أحد طريقين: إما أن نترك حياتنا تتحرك على أساس من المصادفة، و إما أن نخطط لها على أساس من قراءة السلوك الإنساني، ولقد اختار سكينر الطريق الثاني، ولولا مغالاته في الدعوة إلى تطبيق مناهج العلوم الطبيعية على الإنسان لكان وبحق منقذ إنسان هذا القرن، ولكن وبحق رسولًا للتربية والحرية[٢]، منقذًا لذلك الإنسان الذي يحيا في حالة من الفوضى والتشوش وعدم القدرة على معرفة ما يفعل، و إن عرف لا يمتلك القدرة على أن يفعل ما يريد، لذلك فخير للإنسان أن يفعل ما يعتقد أنه يريد من ألا يفعل ما يريد اعتقاده.

هكذا ماتت الحرية الفردية عند سكينر وتحولت إلى مجرد وهم، ترى ما هي النتائج التي ترتبت على القول بموت الحرية عند سكينر؟.

إن الإجابة عن هذا التساؤل تتمثل في القول بموت الكرامة وكل القيم الإنسانية الأخرى، فكيف يفسر لنا سكينر ذلك؟.

يجيب سكينر عن التساؤل السالف الذكر موضحًا أن نزوع الإنسان صوب الحرية مرتبط بالكرامة، فإننا نمتدح ذلك الثائر على النتائج البغيضة، كما أننا نحتقر ذلك الإنسان المطيع الذليل الذي يحني ركبته استخذاء، ذلك الذي يقضي عمره منكبًا على عبوديته، معتزًا بذله. إنه أشبه ما يكون بحمار سيده، لا يعيش لشئ سوى العلف.[٣] لذلك فإننا نحترم من هو جدير باحترامنا.[٤]

---

(١) الشرق الأوسط «جريدة العرب الدولية» (نهاية زمن الحروب. العدد ٨٣٣٨. ٢٠٠١/٠٩/٢٦. ٢٠٠٧/٠٥/١٦. http://www.aawst.com

(٢) Diraas.com (علي أحمد عطية. إفريقيا في زمن العولمة. ٢٠٠٧/٠٥/١٤).
http://www.dirasaat.com.ly/seemore.php?moried=46

(٣) سكينر. تكنولوجيا السلوك الإنساني. ص٤٢.

(٤) المرجع السابق. ص٤٨.

ويوضح سكينر أن كفاح إنسان من أجل الكرامة له ملامح كثيرة مشتركة مع الكفاح من أجل الحرية. فإزالة المعزز الإيجابي أمر بغيض، وحينما يحرم الناس من التقدير والإعجاب أو من فرصة الفوز بالثناء أو الإعجاب فإنهم يستجيبون بطرق تتفق مع هذا الحرمان، فإما أن يهربوا من أولئك الذين يحرمونهم، أو يهاجمونهم بقصد إنقاص فاعليتهم.

وعلى هذا فالكرامة مثلها مثل الحرية فعل فردي يقوم على أساس من الرغبة، لذا يبدو التقدم في التكنولوجيا الفيزيائية والبيولوجية كأنه يهدد قيمة الإنسان وكرامته، إذ يقلل فرص الإنسان للحصول على التقدير والإعجاب. فقد قلل علم الطب الحاجة إلى المعاناة في صمت، وقضى هذا على فرصة الحصول على الإعجاب على عمل ذلك. كما أن البنايات المقاومة للنار والحرائق لا تترك مجالًا لشجاعة رجال المطافئ، وكذلك فإن السفن والطائرات المحصنة لا تترك مجالًا لشجاعة البحارة والطيارين.(١)

وعلى هذا فإن التطبيق الفعلي لتكنولوجيا السلوك الإنساني سيؤدي إلى القضاء على الكرامة كما أدى للقضاء على الحرية الفردية.

يذهب سكينر إلى أننا مع تطبيق تكنولوجيا السلوك الإنساني نلجأ إلى ما يسمى بالإجراءات العقابية لمن تسول له نفسه مخالفة ذلك السلوك المخطط، الأمر الذي يرفضه أنصار الحرية الفردية والمدافعين عن الكرامة ويستبدلون بها إجراءات ضعيفة غير فعالة. ويطرح سكينر العديد من هذه الإجراءات مثل:

التساهل: والمقصود به هو عدم ممارسة أي شكل من أشكال التحكم، ومن ثم فلن يوجد أي شكل من أشكال الاعتراض على سلوك الفرد. وبعبارة أخرى إن الإنسان مع التساهل لا يصبح بحاجة إلى وجود حكومة، بل من الممكن أن يكون صالحًا بالفطرة، كما أنه ليس بحاجة إلى دين لأنه تقي بالفطرة، كما أنه ليس بحاجة إلى محفزات اقتصادية لأنه بطبعه يتسم بالكد، ويميل إلى أن يتبادل مع الآخرين جزءًا مما يملك بشروط عادلة تخضع للعرض والطلب.

وعلى هذا فأن ما يحرك الإنسان مع التساهل هو غريزته الفطرية، وإذا ما افترض جدلًا ارتباك وضعه الطبيعي بسبب الحوادث العارضة فقد يصبح لديه مشكلات شخصية ولكنه سيجد حلوله الشخصية دون توجيه من أحد.

---

(١) ----------. ص٥١.

ويوضح سكينر أنه على الرغم من الإيجابيات التي يحويها التساهل مثل توفير الجهد المبذول في الإشراف والمراقبة وتطبيق القوانين، أنها لا تولد هجومًا معاكسًا ولا تعرض من يمارسونها لتهمة الحد من الحرية أو تهمة تدمير الكرامة، أنها تعفيهم من المسؤولية عندما تسوء الأمور، وإذا أساء الناس التصرف مع بعضهم البعض في عالم متساهل، فذلك لأن طبيعة البشر لا تتسم بالكمال وإذا ما اقتتلوا فإن ذلك يرد إلى الغرائز العدوانية، إلا أن التساهل وفق ما يرى سكينر ليس سياسة بل هو ترك للسياسة والتخلي عنها، كما أن فوائده الظاهرة خادعة، فأن نرفض التحكم معناه السيطرة والتحكم لا لشخص بعينه، وإنما لأجزاء من البيئات الاجتماعية وغير الاجتماعية.(١)

المتحكم على شكل قابلة:

والمقصود به وفق ما يرى سكينر أن شخصًا ما يساعد شخصًا آخر في إنجاب السلوك، وبعبارة أخرى أنه لابد من التخلي عن العقوبات وتعليم الفرد السلوك الصالح. ولعل ذلك التصور يرد إلى سقراط عندما ذهب إلى أن الروح تعرف الحقيقة ولا تحتاج إلى أن يوضح لها كيف تعرفها.

ويرى سكينر هنا أن فرويد يتفق مع سقراط في نقاط ثلاث:

- اعرف نفسك.
- الفضيلة هي المعرفة.
- فن توليد الأفكار.

وبعبارة أعم أن سلوك الإنسان وحريته وكرامته هنا ليست مرادفة للالتزام بالمبادئ والقوانين بل تتدفق من مصادر داخلية.

ويوضح سكينر أن لهذا البديل إيجابياته، إذ يهب من يمارسه قوة غريبة كما أن الممارس له يعفى من المسؤولية. فكما تعفى القابلة إذا ما وُلد الطفل ميتًا فكذلك يعفى المعلم من المسؤولية إذا ما فشل التلميذ.

---

(١) ----------. ص٧٥، ص٧٦.

ويذهب سكينر إلى أن الفوائد التي ترتبت على هذا البديل أقل بكثير مما كان يدعى أنها ستتحقق من ناحية، كما أن الإيجابيات تعزى إلى تحكمات غير معروفة من الناحية الأخرى.(١)

الإرشاد:

والمقصود به توجيه سلوك الفرد في اتجاه معين، بمعنى أننا نلمح مولد هذا السلوك ونسعى إلى تطويره بالإرشاد والتوجيه. ويوضح سكينر أن الإرشاد لا يكون فعالًا إلا بالحد الذي تمارس فيه السيطرة. فالمعلم الذي يقوم باختيار المادة التي على التلميذ أن يدرسها، والمعالج الذي يقترح بعمل مختلف أو بتغيير المنظر، يكون قد مارس تحكمًا مع انه قد يكون من الصعب تبين هذا التحكم، وبعبارة أخرى أن الإنسان وإن بدا مع الإرشاد حرًا ومتمتعًا بكرامته فإنه في الحقيقة مجبرًا.(٢)

الاعتماد على الأشياء:

ما يقصد بالاعتماد على الأشياء عند سكينر هو لفظ التحكم الاجتماعي المترتب على الاعتماد على الناس. ومن الفوائد المترتبة عليه توفير وقت الناس الآخرين وطاقاتهم ولكن هل يعني ذلك عدم الاعتماد على الآخرين بشكل مطلق؟.

إن إجابة سكينر عن هذا التساؤل بالنفي لأنه لا يتسنى للإنسان عدم الاعتماد على الآخرين إلا في حالة واحدة، عندما لا يعملون على تغيير سلوكهم.

ويوضح سكينر أنه على الرغم من أن الإيجابيات التي تظهر في الاعتماد على الأشياء إلا أن السيطرة التي قد تمارسها الأشياء قد تكون سيطرة تدميرية، كما أن الاعتماد على الأشياء ليس استقلالًا، فمن الممكن لعالم الأشياء أن يكون استبداديًا، والطوارئ الطبيعية تغري الناس بأن يسلكوا سلوكًا مبنيًا على الخرافات. وعلى هذا فإن سيطرة البيئة الاجتماعية هي ما تحول بيننا وبين هذه الأخطار.(٣)

---

(١) ----------. ص٧٧، ص٧٨.

(٢) ----------. ص ٧٩.

(٣) ----------. ص٨٠، ص٨١.

هكذا يتضح لنا أن الإنسان مع سكينر فقد حريته وكرامته لأنه إذا ما أراد الخروج من دائرة سيطرة البيئة فإنه سيقع في دائرة من السيطرة أشد وطأة وهي سيطرة الطبيعة، وعلى حد قوله»... يبدو أن حرية الإنسان الفرد وكرامته تكونان مصونتين حينما تستخدم فقط الأشكال الضعيفة وغير البغيضة في التحكم، ويبدو أن الذين يستعملونها يدافعون عن أنفسهم ضد التهمة التي مفادها أنهم يحاولون السيطرة على السلوك وأنهم يعفون من المسؤولية حينما تسوء الأمور... إن الطرق المتعددة لتغيير العقول ليست مباحة فحسب، ولكنها تمارس بقوة من جانب حماة الحرية والكرامة. هناك الكثير مما يمكن أن يقال دفاعًا عن تقليل التحكم الذي يمارسه أناس آخرون، ولكن هناك إجراءات أخرى لا تزال تغفل، والشخص الذي يستجيب بطرق مقبولة لأشكال التحكم الضعيفة ربما كان قد تغير بواسطة طوارئ وظروف لم تعد فعالة. وحين يرفض حماة الحرية والكرامة الاعتراف بتلك الإجراءات وهذه الظروف فإنهم يشجعون إساءة استعمال الممارسات التحكمية، ويسدون طريق التقدم نحو تكنولوجيا للسلوك أجدى وأكثر فعالية.[١]

هكذا يتضح لنا أن سكينر في الصفحات السابقة يبين لنا كيف أن السلوك الإنساني هو ما يوضح لنا حقيقة الأشياء، ومن ثم بدا العدو وراء الحرية وهمًا، والبحث عن الكرامة خرافة، فماذا عن القيم الأخلاقية؟.

يجيب سكينر عن هذا التساؤل فيوضح بداية أن القول بأن سلوك الإنسان هو إنجازه الخاص يعتبر قولًا غير علمي، أما القول العلمي فيتمثل في أن سلوك الإنسان يحدد بموجب الخصائص الوراثية التي تعود إلى التاريخ التطوري للجنس البشري، وبموجب الظروف البيئية التي تعرض لها. ويذهب غلي أن وجهة النظر العلمية ذات فائدة لا يمكن تصورها في التصور القبل علمي، فكلما تعلمنا أكثر عن تأثيرات البيئة يكون لدينا مبرر أقل لنعزو أي جزء من السلوك الإنساني إلى فاعل مسيطر مستقل. كما أنه ليس من السهل تغيير الفرد بينما يكون من السهولة بمكان فعل ذلك مع البيئة.[٢] وبعبارة أعم أن التحول مما قبل العلم إلى العلم مرادف للتحول من التحكم الداخلي إلى التحكم الخارجي.

---

(١) ----------. ص ٩٠.

(٢) ----------. ص ٩١.

ويذهب سكينر إلى أنه مع هذا التحول يضيع شيء ما، فالتحول الداخلي يمارس ليس فقط من جانب الإنسان الفرد ولكن من اجله. الأمر الذي يترتب عليه العديد من التساؤلات: لأجل من ينبغي أن تستخدم تكنولوجيا فعالة للسلوك؟ من الذي سيستخدمها؟ ولأي هدف؟ ما هو الشئ الطيب الذي نطلق على شئ آخر بالقياس إليه أنه أفضل؟ هل باستطاعتنا تعريف الحياة الطيبة؟ أو التقدم نحو الحياة الطيبة؟بل ما هو التقدم؟ وبصياغة أعم للتساؤل ما هو معنى الحياة بالنسبة للفرد أو النوع؟.

ويرى سكينر أن مثل هذه التساؤلات تشير نحو المستقبل ولا تتعلق بأصول الناس وإنما بمستقبلهم، إنها ليست تساؤلات عما هو كائن، ولكن عما ينبغي أن يكون وبالتالي فإنها تحوي أهدافًا قيمية. وإذا كانت الإجابات عن هذه التساؤلات تفوق قدرة العلم لأن الإجابة عليها تستلزم قدرًا من الحكمة، إلا أن هذا القول وفق ما يرى لا ينطبق على عالم السلوك الذي ينبغي أن يكون لديه إجابات عن هذه التساؤلات.(١)

ومن منطلق كونه عالم سلوك يرى أنه يمتلك القدرة على الإجابة عن مثل هذه التساؤلات، فيذهب بداية غلي وجوب إعادة صياغة التساؤل ليصبح: إذا كان التحليل العلمي يعلمنا كيف نغير السلوك، فهل يمكنه أن يقول لنا أي التغييرات ينبغي عملها؟.

ويجيب سكينر عن هذا التساؤل موضحًا أن هذا التساؤل يتعلق بسلوك أولئك الذين يقترحون التغيرات ويقومون بها فعلًا، ذلك لأن هناك أسبابًا قوية تجعل الناس يعملون لتحسين العالم وللتقدم نحو حياة أفضل، ومن أهم هذه الأسباب ما يترتب على سلوكهم من نتائج معينة، ومن هذه النتائج تلك الأشياء التي يضفي عليها الناس قيمة ويصفونها بأنها طيبة. وبعبارة أخرى إن القيم عند سكينر نتيجة لتلك النتائج التي تترتب على السلوك، فإذا كان السلوك خيرًا كانت النتائج خيرة وبالتالي تظهر قيمة الخير والعكس صحيح. ويتضح لنا هنا البعد البراجماتي في فكر سكينر، إذ أن معيار صحة الشئ وخيريته يتوقف على النتائج التي تترتب على هذا الفعل.

وبمفردات سكينر إن القيم الأخلاقية كالخير والطيبة والشجاعة والكرم... إلخ هي معززات إيجابية، أما الشر والبخل...الخ فهي معززات سلبية للسلوك، حيث تشجعنا المعززات الإيجابية على إتيان الفعل، بينما تعمل المعززات السلبية على هروبنا من الفعل.(٢)

(١) المرجع السابق. ص٩٢.
(٢) ----------. ص٩٣.

وبعبارة أعم إذا كان الإحساس والشعور بالشئ مهم فإن الأهم هو ما تحسه وما تشعر به. ويتضح لنا هنا البعد الواقعي في فكر سكينر، فالقيمة الأخلاقية لا تمثل شيئًا في ذاتها، وإنما تُستمد القيمة من الشئ الذي ننسب له هذه القيمة، وعلى حد قوله «... لقد عمم الناس الأحاسيس بالأشياء الطيبة وسموا تلك الأحاسيس السرور، كما عمموا الأحاسيس السيئة وسموا تلك الأحاسيس الألم، ولكننا لا نعطي الإنسان سرورًا أو ألمًا، وإنما نعطيه أشياء يحس بأنها سارة أو مؤلمة، والناس لا يعملون لمضاعفة السرور إلى الحد الأعلى وتقليل الألم إلى الحد الأدنى، وإنما يعملون لإنتاج الأشياء السارة وتحاشي الأشياء المؤلمة.»[١]

وعلى هذا فإن ما نعنى به مع سكينر ليس القيمة ذاتها وإنما الشئ الذي يؤدي إلى هذه القيمة.

والتساؤل الذي يطرح نفسه الآن يدور حول من هو مصدر القيمة عند سكينر؟ هل هو الأنا أم الآخر؟.

ويجيب عن هذا التساؤل موضحًا أن الفرد والآخر هما مصدرها لأنها نتاج للنتائج المترتبة على السلوك المشترك بين الأنا والآخرين.[٢] وهذا ما حدا به إلى القول بان القيم ليست موجودة في الفرد وإنما في الظروف والطوارئ الاجتماعية المحتفظ بها لأغراض التحكم، أي أن القيم الأخلاقية عنده لا تعبر عن الحرية وإنما هي صورة أخرى من صور التحكم، وعلى حد قوله»... إن السلوك المصنف بأنه جيد أو سئ، مصيب أو خاطئ، ليس ناشئًا عن الطيبة أو السوء، أو عن الخلق الطيب أو السئ، أو عن معرفة الصواب والخطأ، بل هو ناشئ عن الظروف والطوارئ المشتملة على تشكيلة كبيرة من المعززات».[٣]

من خلال ما سبق يتضح لنا أن البيئة الاجتماعية عند سكينر تحدد من هو الإنسان الحر وتحدد ماهية القيم الأخلاقية، ويرجع ذلك إلى قوله أنه بدون البيئة الاجتماعية يبقى الشخص في الأساس وحشيًا مثل أولئك الأطفال الذين يقال أن الذئاب ربتهم، أو الذين استطاعوا حماية أنفسهم من أوائل سنوات عمرهم في ظل مناخ طيب. والإنسان الذي يظل وحيدًا منذ الولادة

(١) ----------. ص٩٦.
(٢) ----------. ص٩٧.
(٣) ----------. ص١٠١.

لن يكون له سلوك لفظي، ولكن يكون واعيًا بنفسه كشخص، ولن يمتلك أيًا من الأساليب التي تسير الذات.وبعبارة أخرى إن الحرية والقيم الأخلاقية فعلًا مكتسبًا وليس فطريًا، هي نتاج لتكنولوجيا السلوك الإنساني الذي يهدف إلى كشف النتائج البعيدة للسلوك الإنساني لا الوقوف عند نتائجه القريبة.(١)

هكذا يتضح لنا أن كل ما هو ذاتي وفردي مات عند سكينر ولم يتبق لنا سوى البيئة وانعكاساتها على السلوك الإنساني، لذا كان من البديهي أن يموت إنسان الحرية الفردية والمؤمن بذاتية القيم الأخلاقية، فكيف يبرهن لنا سكينر على موت الإنسان الفرد.؟

إن الإنسان الذي نعرفه (إدراك، وجدان، وشعور) قد مات بناء على فكر سكينر، أما الإنسان الذي يحيا مع فكره فهو من تبدعه البيئة وثقافة المجتمع.(٢)

ويقدم لنا سكينر تصورًا لما ينبغي أن تكون عليه الثقافة، حيث يرى أن قوة الثقافة تعتمد على سلوك أعضائها. فالثقافة التي تحافظ على النظام المدني وتدافع عن نفسها ضد الهجوم، تحرر أعضاءها من أنواع معينة من المخاطر ويفترض أنها توفر وقتًا وطاقة أكثر لأشياء أخرى. تحتاج الثقافة إلى العديد من الأشياء لبقائها، ولابد أن تعتمد قوتها جزيئًا على الظروف والطوارئ الاقتصادية التي تحافظ على الاشتغال بالأعمال والمشاريع وعلى العمل الإنتاجي، كما تعتمد على تيسر أدوات الإنتاج، وعلى تنمية وصيانة الموارد الطبيعية. ومن المفروض أن تكون الثقافة أقوى إذا كانت تقنع أعضاءها بالمحافظة على بيئة آمنة وصحية، وبتوفير العناية الطبية، بإبقاء الكثافة السكانية فيها متفقة مع مواردها واتساعها. ينبغي أن تنتقل الثقافة من جيل إلى جيل، ومن المرجح أن قوتها ستعتمد على ماذا وكم يتعلم أعضاءها الجد إما من خلال الظروف التعليمية غير الرسمية أوفي المؤسسات التربوية. وتحتاج الثقافة إلى دعم أعضائها لها، وعليها أن تتيح لهم السعي وراء السعادة وتحصيلها إذا كانت تريد أن تحول دون ظهور استياء أعضائها أو ارتدادهم عنها، يجب أن تكون الثقافة مستقرة استقرارًا معقولًا، ولكن لابد لها أن تتغير. ومن المسلم به أنها ستكون أقوى إذا ما استطاعت تحاشي الاحترام المفرط للتقاليد والخوف المفرط من الجديد من جهة، وتحاشي التغير السريع من الجهة الأخرى. وأخيرًا لابد أن

(١) ----------. ص١١٠.

(٢) دار الفكر. (حنان اللحام. الطفل وثقافة الفعالية.٢٠٠٦/٠٨/٠٦. ٢٠٠٧/٠٥/١٦.)
http://www.Fikr.net/ideas_Faalia.htm

يكون للثقافة حظ خاص من القيمة البقائية إذا كانت تشجع أعضاءها على تفحص ممارستها وعلى تجريب ممارسات جديدة.[١]

إن ما قدمه سكينر في السطور السابقة هو محاولة للتنظير للثقافة الأمريكية القائمة بالفعل، الذي يخلص منه إلى القول بأن تصميم الثقافة شبيه بتصميم التجربة حيث يتم ترتيب الظروف وملاحظة النتائج.

والتساؤل الذي يطرح نفسه الآن يدور حول إذا ما افترضنا جدلًا التحقق الفعلي لهذه الثقافة فما هي ماهية الإنسان الذي يحيا في غضونها؟.

يجيب سكينر عن هذا التساؤل موضحًا أن الإنسان هنا ليس الإنسان الفرد، لأنه عندما يتبنى علم السلوك استراتيجية الفيزياء والبيولوجيا، يستبدل البيئة بالإنسان الفرد، الذي كان ينسب إليه السلوك بشكل تقليدي، ذلك لأن البيئة هي ما نشأ فيها الجنس البشري وتشكل من خلال سلوك الفرد. وعلى هذا فالإنسان هنا ليس الإنسان الفرد وإنما النوع الإنساني بصورة عامة[٢]، هو ذلك الإنسان العملي الممارس.[٣] هو من يتصرف كما نريد، ويشعر أن فعله نابع منه ويؤتيه بإرادته.[٤]

والتساؤل الذي يطرح نفسه الآن يدور حول هل انتهى الإنسان الفرد بشكل نهائي عند سكينر؟. وبصياغة أخرى للتساؤل هل مات العالم الإنساني الخاص بالنسبة للفرد؟.

يجيب سكينر عن هذا التساؤل بالنفي موضحًا أنه من الحماقة أن ننكر وجود ذلك العالم الخاص، غير أنه من الحماقة أيضًا التأكيد على أن هذا العالم ذو طبيعة مختلفة عن العالم الخارجي لأنه عالم خاص. فالفرق ليس في المادة التي يتألف منها العالم الخاص، وإنما في إمكانية الوصول إليه.[٥]

---

(١) سكينر. تكنولوجيا السلوك الإنساني. ص١٣٥.

(٢) المرجع السابق. ص١٦١.

(٣) ---------- ص١٧٢.

(٤) إيلاف «جريدة الجرائد» (خالص جلبي.جان جاك روسو. فلسفة من رحم المعاناة. ٢٠٠٥/٠٨/١٧. ٢٠٠٧/٠٥/١٦).

http://www.elaph.com

(٥) سكينر. تكنولوجيا السلوك الإنساني. ص١٦٧.

من هذا المنطلق يذهب سكينر إلى أن وجود الإنسان الفرد ليس غاية في ذات، و إنما تعتبر معرفة النفس ذات قيمة بمقدار ما تساعد في التلاؤم مع الطوارئ التي برزت في ظلها، وبعبارة أخرى إن ملاحظة الذات تعتبر مدخلًا للعمل.(١) وبالتالي فإن هذا الوجود (الوجود الخاص) يحتل مكانة كبيرة في الطفل وفي الثقافة البدائية.(٢) ومع ذلك فلا يمكننا تجاهله بشكل ما أو بآخر لأنه هو من أبدع البيئة الاجتماعية وخضع لها. وبعبارة أخرى إننا أمام نفسين: إحداهما مسيطرة التي تمثل اهتمامات ومصالح الآخرين، والأخرى مسيطر عليها وتعبر عن مصلحة الفرد واهتمامه.

وعلى هذا يمكننا القول بأن سكينر لم يقل بموت الحرية والكرامة والقيم الإنسانية فحسب، ولكنه من القائلين بموت الإنسان الفرد، الأمر الذي يعبر عنه بشكل مباشر عندما يقول»...إن ما يتعرض للإلغاء هو الإنسان الفرد، الإنسان الداخلي، الإنسان القزم، الروح المستحوذة، الإنسان الذي تدافع عنه آداب الحرية والكرامة.(٣)

إن سكينر لم يقف عند هذه المرحلة بل يذهب إلى أن إلغاء هذا الإنسان تأخر عن موعده كثيرًا. فليس الإنسان الفرد وفق ما يرى سوى وسيلة تستعمل لتفسير ما لا نستطيع تفسيره بأية طريقة أخرى، لقد بُني من واقع جهلنا، وكلما ازداد فهمنا لا تلبث المادة التي يتكون منها أن تتلاشى.

و يبدو سكينر هنا ضد الحداثيين وما بعد الحداثيين، الذين ينظرون إلى التقدم التكنولوجي والسياسة التي يحكمها الطابع العام الاجتماعي باعتبارها قيودًا تجعل من الإنسان الفرد مجرد شيطانًا أو ذرات تنقلها رياح العلم على غير رغبتها.(٤)

يذهب سكينر إلى أنه بعد تخلصنا من الإنسان الفرد يتسنى لنا الانتقال مما نتوصل إليه بالاستنتاج إلى ما نتوصل إليه بالملاحظة، ومن المعجز الخارق إلى الطبيعي، ومن المتعذر بلوغه إلى الشئ الذي يقبل أن يعالج و يفحص.

---

(١) المرجع السابق. ص١٦٩.

(٢) ---------- ص١٧١.

(٣) ---------- ص١٧٥.

(٤) خوسيه ماريا بوثويلو إيفانكوس. نظرية اللغة الأدبية. ترجمة «حامد أبو أحمد». القاهرة: مكتبة غريب. ١٩٩٢. ص١٤٣.

ولكن ماذا يتبقى من الإنسان ألن يصبح حيوانا؟.

يجيب سكينر عن هذا التساؤل قائلًا »... إن كلمة حيوان اصطلاح ازدرائي، ولكنها كذلك لأن الإنسان أضفى على نفسه تشريفًا لا داعي له.»[١] وبعبارة أعم إن سكينر عارض قول هاملت « ما أشبه الإنسان بالله» وقبل قول بافلوف «الإنسان كبير الشبه بالكلب»، ومرد ذلك وفق ما يرى سكينر إلى أن قربه من الله معناه الخوض في عالم من الميتافيزيقا، أما تشابهه مع الكلب فيجعله يقع في مجال التحليل العلمي. التحليل الذي يجرد الإنسان الفرد من السيطرة التي كان يمارسها ويحول هذه السيطرة إلى البيئة. ولكن هل سيطرة البيئة متمثلة في أناس آخرين على الإنسان مرادفة للقضاء عليه؟.

يجيب سكينر عن هذا التساؤل بالنفي موضحًا أن من يصل إلى الطريق المسدود هو الإنسان الفرد الذي يبغي الحياة في عالمه الخاص.[٢] ويمكننا هنا أن نلمح سير سكينر بخط متواز مع الفلسفة الصينية المعاصرة، التي تجعل تقدم المجتمع مرهون بتقدم الإنسان النوع لا الإنسان الفرد.[٣]

ولو نظرنا نظرة موضوعية وفق ما يرى سكينر لوجدنا أن الأوضاع المادية والاجتماعية من نتاج النوع الإنساني، وبالتالي فإن العلاقة بينهما علاقة جدلية. فالنوع الإنساني سيخضع للبيئة التي شيدها مؤمنًا بأنها ستحقق له المكاسب وعلى حد قوله»... إن الإنسان كما نعرفه هو في السراء وفي الضراء ما صنعه الإنسان من الإنسان.»[٤]

هكذا يتضح لنا أن من مات عند سكينر ليس نوع الإنسان وإنما الإنسان الفرد، الذي يزعم أن له حرية فردية وإرادة وعالم خاص به، ذلك الإنسان الذي عبر عنه سكينر بوضوح في غضون حديثه عن قضية الموت قائلًا»... من أعظم مشكلات الفردية التي قلما عرفت بهذه الصفة، هي الموت، المصير المحتوم الذي لا مفر منه للفرد، والهجمة النهائية على الحرية والكرامة. لقد جعلت بعض الأديان الموت أكثر أهمية بتصوير وجود مستقبلي في الجنة أو في

(١) سكينر. تكنولوجيا السلوك الإنساني. ص١٧٥.
(٢) المرجع السابق٤. ص١٧٩.
(٣) وون. الصينيون المعاصرون (التقدم نحو المستقبل انطلاقًا من الماضي). ترجمة «عبد العزيز حمدي»، مراجعة «د. لي تشين تشونغ». الكويت: سلسلة عالم المعرفة. العدد٢١١. يوليو١٩٩٦.ر ص٢٧١، ص٢٧٢.
(٤) سكينر. المرجع السابق. ص١٨٠.

جهنم، ولكن المؤمن المذهب الفردي(*) يخاف الموت بسبب خاص، سبب لم تخططه الأديان وإنما خططته آداب الحرية والكرامة، هذا السبب هو توقع الفناء الشخصي، ليس بمقدور الشخص الفردي النزعة أن يجد عزاء في التفكير بأية مساهمة تبقى من بعده. لقد رفض أن يعمل لخير الآخرين، وهو لذلك لا تسعده الحقيقة التي مفادها أن الآخرين الذين ساعدهم سيعيشون بعده. لقد رفض أن يهتم ببقاء ثقافته، ولا يسعده أن الثقافة ستعمر طويلًا بعده. وفي دفاعه عن حريته الخاصة وكرامته الخاصة ينكر إسهامات الماضي وخدماته، وعل هذا الأساس لابد أن يتنازل عن أي حق له في المستقبل.»(١)

هكذا مات الإنسان الفرد عند سكينر على الرغم من إيماننا بأنه لا وجود لإنسان بهذه السمات التي وسمه بها سكينر، بل نستطيع القول أن سكينر كما صور لنا وصمم ثقافة لا يمكن تحققها فقد خلق لنفسه عدوًا غير موجود بالفعل وأقر بموته. ولكن إذا افترضنا جدلًا معه وجود هذا الإنسان ونجحنا في القضاء عليه ترى ما هي الصورة التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان كما يرى سكينر؟.

يجيبنا سكينر عن هذا التساؤل قائلًا»... أما في الصورة العلمية فيعتبر الشخص عضوًا في أحد الأجناس شكلته طوارئ البقاء التطورية، ويبدي عمليات سلوكية تضعه تحت سيطرة البيئة التي يعيش فيها، وإلى حد كبير تحت سيطرة بيئة اجتماعية بناها هو وملايين من الناس ممن هم على شاكلته وحافظوا عليها خلال تطور الثقافة».(٢)

هكذا يتضح لنا أن الإنسان الذي ينشده سكينر هو ذلك التابع الخاضع، الذي لا يتسنى له بشكل ما أو بآخر أن يقول في أي لحظة من اللحظات أن لي إرادة، إذ أن جل ما يفعل هو أن ينفذ على الصعيد الاجتماعي أوامر البيئة الاجتماعية، وعلى الصعيد السياسي أوامر القيادة السياسية. وكأني بسكينر هنا يعود بنا إلى مفهوم العدالة الأفلاطوني القائل بأن لكل فئة وظيفة يجب ألا تتجاوزها. وإذا كان أفلاطون قد أباح إمكانية أن يصبح ابن الحارس حاكمًا فمع

(*) إن المؤمن بفكرة البعث والجنة والنار مؤمن بالضرورة بما يسمى بالخلاص الفردي، وبناء عليه فهو يتصرف بمقتضى طمعه في الجنة وكراهيته للنار، وبالتالي فهو مهتم كل الاهتمام بمستقبله وغير متنازل عنه. أما غير العابئ بالفكر الديني فلا يعنيه الماضي ولا يعنيه المستقبل من بعده، وهو ما يعنيه سكينر في هذا السياق.

(١) المرجع السابق. ١٨٣.

(٢) ----------. ص١٨٤.

سكينر لن يصبح الحارس إلا حارسًا والحاكم حاكمًا. كما يبدو لنا سكينر هنا من دعاة الحتمية الثقافية Cultural Determinism، ذلك المصطلح الذي ارتبط بشكل خاص بتلاميذ وأتباع بواس من الأنثروبولوجيين الثقافيين في شمال أمريكا، حيث استخدموا الثقافة كأساس تفسيري يفسر جميع أنماط واختلافات السلوك بين الجماعات الإنسانية.(١)

والتساؤل الذي يطرح نفسه الآن يدور حول ماهية المجتمع الذي تُصمم فيه ثقافة سكينر وتحكم فيه البيئة الاجتماعية ويوجد فيه الإنسان كما تخيله.

إن المتأمل لفكر سكينر في الصفحات السابقة يخلص إلى انه يقدم محاولة لإعادة بناء المجتمع من خلال التركيز على إعادة بناء السلوك الإنساني. إن محاولته هذه تعيد إلى الأذهان ذلك الصراع الفكري الذي عم المجتمع الفرنسي بعد الثورة الفرنسية. فلقد تمثلت الغاية في إعادة تنظيم المجتمع، ولكن الاختلاف كان حول طريقة التنظيم. فذهب جوزيف دي مستر ودي بونالد إلى المناداة بالعودة النظام الفردي الاوتوقراطي، ونادى سان سيمون بإقامة المجتمع على أساس صناعي استبدادي، وبحث فورييه وبرودون عن مجتمع جمعي مثالي، ومجد ماركس وأتباعه الاشتراكية المادية.(٢)

وإذا كنا نقول عن المفكرين الاشتراكيين الذين ينسجون لنا خيوط مجتمع يعبر عما ينبغي أن يكون عليه المجتمع أنهم مفكرون يوتوبيون، ولكننا اعتدنا منهم التأكيد على الحرية والمساواة والإخاء والكرامة الإنسانية، وفي بعض الأحيان النظر لحرية الآخر وكرامته باعتبارها عاملًا أساسيًا لتحقق هذا المجتمع.

وإذا ما نظرنا إلى سكينر لوجدنا أنه يحاول أن ينظر للمجتمع الأمريكي القائم بالفعل، ذلك التنظير الذي يقف على طرفي نقيض مما قدمه هؤلاء، حيث يقوم مجتمعه على فكرتي السيطرة والخضوع: يسيطر الحكام ويخضع المواطنون.

إن هذا المجتمع نبذ الحرية والكرامة والاستقلال، تسنى له إصلاح السلوك البشري عن طريق وسائل تربوية وتكنولوجية متقدمة، وتكوين عادات جديدة لهم بحيث أصبح الجميع

(١) شارلوت سيمون سميث. موسوعة علم الاجتماع (المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية). ترجمة «مجموعة من أساتذة علم الاجتماع باشراف محمد الجوهري». القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة. ١٩٩٢. ص٣٣٣.

(٢) محمد طلعت عيسى. أتباع سان سيمون (فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها في مصر). القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة. ١٩٦٣. ص٩.

يسلكون على نحو ما هو مرسوم لهم. إن الحياة في هذا المجتمع محكومة في أدق تفاصيلها بالوسائل التكنولوجية. وبعبارة أعم أن الناس في هذا المجتمع أضحوا بمثابة آلات خاضعة لمعايير محددة. وعلى هذا فصورة هذا المجتمع هي التماثل والقوالب النمطية والاستسلام، إنه مجتمع من المسخ البشري.(١)

إن هذا المجتمع الذي يشيده سكينر شبيه بمجتمع النمل، حيث لا حاجة للمرء إلى مراقبة سلوكه ولا مسؤولية عليه بسبب هذا السلوك، حيث تحللت الفردية تمامًا في هذا المجتمع.(٢)

من هذا المنطلق ينتقد سكينر الديموقراطية البرجوازية، ويُدين كل أشكال الانتخابات والهيئات النيابية التي يختارها الناس بأنفسهم. إن إنسان هذا المجتمع معني فحسب بأمور حياته اليومية، لا يعنيه من يحكم ولا كيف يحكم. وإذا ما تساءلنا عن ماهية الحاكم في مثل هذا المجتمع، لأجابنا سكينر أنه شبيه بملاح الطائرة الذي لا يستمع إلى الركاب ليعرف وجهتهم. ويبدو أن سكينر نسي أو تناسى أن الملاح يعمل في منظومة ثابتة لها قوانين تحكمها، وأن الإنسان الذي يركب الطائرة حدد وجهته مسبقًا، كما أنه ما كان للملاح أن يقود الطائرة إذا لم يكن بها ركاب.

وعلى هذا فحاكم سكينر إما أنه مسيح مخلص وفي الأرجح فاشي، لأن هذا الاستسلام من قبل الرعية لا يكون إلا لحاكم فاشي يفرضه عليهم بلغة القوة، أو حاكم ديني يفرضه باسم الإيمان، وعلى الجميع الطاعة العمياء وإلا كانوا كفارًا وزنادقة وفقًا لمبدأ المنفعة.(٣)

والتساؤل الذي يفرض نفسه علينا الآن يدور حول ماذا تعني الحياة في مثل هذا المجتمع؟ وماذا يعني القول بأن الإنسان حر؟.

وفيما يتعلق بالجريئة الأولى من التساؤل يمكن القول بان الحياة مع مجتمع سكينر ستصبح ابتلاء وقدرًا، والخلاص منها راحة ونعيما. لن يصبح نبض القلوب دليلًا على الحياة، بل تعبيرًا عن الكد والشقاء، وخطوات على طريق المعاناة، لن يعرف القلب الحب وخفاقات البهجة أو الابتهاج للجمال الذي يغري بأن ننهل منه المزيد، بل قد تقول: إن الجمال غواية، وأن فضيلة

(١) شوقي جلال. المرجع السابق. ص١٤٨.
(٢) المرجع السابق. ص١٥٠.
(٣) New Page2 (التفريغ الأيديولوجي والغربة. ٢٠٠٧/٠٥/١٥).
http://www.iraq4all.dk/Book/Hade-usa/12.htm

الفضائل هي الرحيل عن دار الشقاء. وبدلًا من ارتقاء الإنسان مع تعاقب الأجيال، يصبح الناس نسخًا متكررة شأن الآلات سواء بسواء. إن الإنسان مع مثل هذا المجتمع يعيش غريبًا عن نفسه وعن الحياة.(١)

أما فيما يتعلق بالجريئة الثانية من التساؤل يمكن القول بأن أناس هذا المجتمع أحرار في أن يفعلوا ما يشاءون، طالما أنهم لا ينشدون سوى الأمور التي برمجها لهم زعماؤهم وغرسوها في نفوسهم. وبعبارة أعم أن الحرية مرادفة للطاعة والخضوع.(٢)

وعلى هذا يمكننا القول بأنه إذا كان ظاهر فكر سكينر يوحي بأنه يبغي أن يقيم المجتمع على أساس علمي إلا أن جوهره يبرهن على أنه يقيمه على أساس من فكرة السيادة، وبعبارة أخرى إن ظاهر قول سكينر يعيد إلى أذهاننا سان سيمون أما جوهره فيلقي بنا في أحضان جان بودان.

من العرض السابق لفكر سكينر يتضح لنا أن الإنسان عند سكينر أصبح كفأر تجارب إذ يعيش في تجمع من أفراد تروضهم السلطة أو الحاكم وفقًا لمشيئته وحسب قاعدة المنبه والاستجابة، وتكوين أفعال منعكسة شرطية أو عادات تخلق اعتقادات تتلاءم مع حاجة الحاكم. وها هنا تبدد نداء عصر التنوير عن الحرية والإخاء والمساواة، وانتهكت شعارات حضارات العصر، وتحولت الحرية الفردية والإرادة الحرة والوعي والضمير إلى أشباح تثير الاستهجان. ولم يعد الإنسان سوى حيوان تجارب فقد أهليته، وبات خامة تغرس فيها السلطة ما تشاء من اعتقادات بالترهيب أو الترغيب حسب مدى مقاومته وأضحت شرور المجتمع اعتقادات خاطئة، أي أوهام يمكن تغيير زاوية النظر إليها، فنرى المجتمع غارقًا في السعادة، وتعطلت فعالية الوعي الإنساني، وهي سلاحه الماضي الفعال لتغيير حياته وتغيير المجتمع.

وفي حقيقة الأمر إن من يحاول أن يصنعه سكينر وخاصة في حديثه عن تكنولوجيا السلوك الإنساني بحيث يخضع السلوك الإنساني للعلم، أو يتحرك على أساس من المنهج العلمي، يجعلنا نقول أن سكينر يعتبر محاولة جادة لإحياء الفكر السانسيموني، حيث جعل سان سيمون Saint Simon (١٧٦٠-١٨٢٥) من المنهج العلمي المنهج الوحيد لدراسة المجتمع الإنساني، وليس أدل على ذلك من قوله أن كافة مظاهر التفكير العلمي التي سبقت العصر الذي بدأ فيه هذا التفكير

(١) نفسه.

(٢) شوقي جلال. العقل الأمريكي يفكر. ص١٥٠.

يعتمد على الملاحظة والنقد يجب أن تعتبر كأعمال تمهيدية. فالعلم لا يمكن اعتباره علمًا وضعيًا إلا في العصر الذي تصبح فيه العلوم خاضعة للملاحظة. إن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل تجاوزه ليرى أن الدين اختراع قامت به الإنسانية، ويجب أن يكون العلم دين المستقبل.(١)

كما لا يمكننا تجاهل تأثر سكينر باوجست كونت August Comte (١٧٩٨- ١٨٥٧) الذي ذهب إلى القول بأن قيام فلسفة علمية هو حجر الزاوية في إعادة تنظيم المجتمع البشري. لذلك فإنه يوصي باحترام العلوم الوضعية التي تدرس الحقائق الخارجية، وتحتقر دراسة الميتافيزيقا وعلم النفس.(٢) إن الأمر لم يقف عند هذا الحد، بل إن فلسفته الاجتماعية تقوم على أساس من اشتقاق مبادئ علم الاجتماع من المبادئ البيولوجية.(٣)

إن سكينر لم يتأثر في فكره بما قاله سان سيمون فحسب، وإنما تأثر بما قاله الفيلسوف الفرنسي برودون Proudhon (١٨٠٩- ١٨٦٥) بأنه لا يوجد ثمة وجود حقيقي للفرد بمنأى عن الصوت الاجتماعي الذي يتمثل فيه هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى رفضه للقيم المتعارف عليها كالحق والعدل المر المتمثل في قوله «...يجب التخلي عن الأفكار الذاتية المطلقة التي كانت تسيطر على الفلاسفة والمشرعين حتى يومنا هذا. ولنبحث خارج نطاق ما يعرف بالحق والعدل، عن القوانين التي يمكن أن تحددها، والتي يجب أن نزود بها بصورة وضعية عند دراستنا للعلاقات الاجتماعية الناشئة عن الظواهر الاقتصادية».(٤)

هذا ويرى برودون أن الإنسانية تمر من المرحلة البدائية إلى مرحلة النضج، وإذا كان الدين يلتقي مع مرحلة الطفولة البدائية، فإن العلم يمثل مرحلة النضج في التطور الإنساني.

وإذا كنا نقول بأن سكينر قد تأثر بسان سيمون وأوجست كونت برودون، فإنه من الجدير بالذكر القول أنه كان أكثر تأثرًا بالفلسفة الاجتماعية لأتباع سان سيمون، أولئك الذين صبغوا مذهب سان سيمون وآراءه الفلسفية بالحتمية من ناحية، وإقرارهم بالدولة باعتبارها أساسًا للتنظيم الاجتماعي من الناحية الأخرى.(٥) إن الأمر لم يقف عند هذا الحد

(١) محمد طلعت عيسى. المرجع السابق. ص١٣.
(٢) المرجع السابق. ص١٨.
(٣) ----------. ص١٩.
(٤) ----------. ص١٧.
(٥) ----------. ص٧٦.

بالنسبة لأتباع سان سيمون، بل ذهبوا إلى وجوب تبعية وسائل الإنتاج للدولة و إلغاء حق الوراثة الفردية.(١)

وبعبارة أعم لقد أراد سكينر أن يحقق في ميدان علم النفس ما نادى به أتباع سان سيمون في ميدان علم الاجتماع بصورة عامة والملكية بصورة خاصة، حيث تصوروا أن الملكية لن تصبح القوة وسيلة بلوغها و إنما العمل والإنتاج هما ما يؤديان إليها، ليس بشكل مباشر، و إنما بشكل تدريجي، وأقروا بأن هذا التحول يعتبر أمرًا مقضيًا.

و إذا كان فكر سكينر ثورة على أفكار التنويريين فإن أتباع سان سيمون يقولون عن فكرهم وخاصة الدائر حول الملكية «... عندما نحارب الملكية الناشئة عن حق الاغتصاب أو حق الوراثة، فإننا نصارع العصور القديمة والعصور الوسطى من أجل نظام الملكية في المستقبل، تلك الملكية التي سوف يحصل عليها الفرد نتيجة للعمل العلمي لا نتيجة للحرب أو للنهب أو للسلب، ... فمع حق الملكية في النظام الجديد، تتلاشى العادات والميول غير الاجتماعية التي تصبح موضعًا للامتعاض والكراهية ويحل محلها الشعور بقيمة العمل وقدسيته، و يصبح التفاني والعبقرية هما المقياس الأساسي للملكية».(٢)

وعلى هذا فإذا كان سكينر جعل من الخضوع مبدأه فلقد جعل أتباع سان سيمون من الطاعة قانونًا للهيئة الاجتماعية بأكملها.(٣)

و إذا كان سكينر قد تأثر بالمدرسة السانسيمونية فلا يمكننا إنكار اتساقه مع تراث الفكر البراجماتي، إذ يستحيل في ضوء هذا المنهج الحديث عن حرية أو كرامة. و ينتفي في ظل هذه النظرة الحديث عن خير أو شر اجتماعيين فهذه كلها أوهام وتخيلات.(٤) والتسليم بهذا يعني استسلام كامل للسلطة صاحبة القوة والقرار، ومن ثم تأمن السلطة، وكل سلطة، على نفسها مغبة ترديد الشعارات الهدامة مثل الحرية والكرامة. ولقد كان شديد التأثر بهربرت ميد G.H.Mead، وهو عالم نفس اجتماعي تصور الذهن لا في حدود شعور فردي، ولكن في

(١) ----------. ص٧٩.

(٢) ----------. ص٨٠.

(٣) ----------. ص٣١١.

(٤) جون ديوي. الفردية قديمًا وحديثًا. ترجمة «خيري حماد»، مراجعة «مروان الجابري». القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. ٢٠٠١.ص ٤٥، ص٤٦، ص١٤٥، ص١٤٦.

حدود الأعمال الاجتماعية. ويقر بأن تطور المنظمات الاجتماعية بعيد كل البعد عن التفسير الديني، ذلك لأن معنى الحياة ندركه في الحاضر أكثر من الماضي أو المستقبل.[١]

وإذا ما أردنا أن نضع فكر سكينر في ميزان النقد لقلنا أن كتابه (تكنولوجيا السلوك الإنساني)، الذي صاغ فيه فكره بصورة عامة يتسم بالغموض، حيث يفترض بعض الفروض ثم يتركها لفترة ويعود ليتحدث عنها كما لو كانت فروضًا ثبتت صحتها، كما يقدم العديد من التساؤلات ويتركها بدون إجابات. كما أن هذا الكتاب يحوي صوتًا تسلطيًا واضحًا من أجل الوصول إلى مسلمات قطعية. هذا غلي جانب أنه يقدم لنا في نهاية كل فصل ملخص مختصر لشئ لم يتطرق إليه بشكل ما أو بآخر في غضون هذا الفصل أو الفصل التالي له. وينهج سكينر الأسلوب العلمي المتأدب في عرضه للأفكار، ويستخدم المنهج السردي التحليلي في المعالجة معولًا على علم النفس ولاسيما نظريات المدرسة السلوكية.

وإذا ما انتقلنا من نقد منهجيته إلى نقد فكره لأمكننا القول إنه فكر يهدف إلى قتل الإبداع الفردي بين العامة، ووأد العقل وخنق العاطفة، وتوظيف العلم لمزيد من القهر والهيمنة لحساب الصفوة هذا من ناحية، كما أن الحياة مع الآلة وبأسلوبها وتحت سيطرتها على هذا النحو المرسوم سوف تقضي على فعالية الإنسان وإنسانيته من الناحية الأخرى. أضف إلى ذلك أننا نفقد الوعي في مثل هذا المحيط المتسلط، نفقد الوعي الذي يعتبر بمثابة الفضيلة العظمى للمجتمع الحر، حيث حرية الحصول على المعلومات، حرية النقد، حرية الإبداع، حرية الاستفادة بالمعارف الجديدة، والتعامل العقلاني النقدي مع الواقع.

كما لا يمكننا أن نتعامى عن أن هذا الفكر العدمي والتجهيلي لا يقتصر أثره المدمر على البسطاء في الولايات المتحدة الأمريكية، بل هو الغذاء الفكري الذي تصدره إلى بلدان العالم الثالث التواقة للحرية والساعية إلى تنمية بلدانها اقتصاديًا واجتماعيًا وفكريًا، والمتطلعة إلى مستقبل واعد، أو هكذا تأمل، والحريصة على ماضيها ومصيرها في آن واحد. وتتلقف هذا الغذاء نظم الحكم المعادية لحركة التقدم الاجتماعي، والحكام الفرديون المستبدون، ويجدون في هذا الفكر ضالتهم وسندهم ودليلهم الذي يهديهم إلى سبيل التحكم في فكر معركة شعوبهم، وضمان البقاء في موقع السلطة بسلاح القوة الباطشة والدعايات المضللة.

---

(١) منتدى عمرو خالد (كيف تؤثر على الآخرين وتكتسب الأصدقاء. ٢٠٠٧/٠٤/٠٧. ٢٠٠٧/٠٥/١٦.)
http://forumamrkhaled.net

وخلاصة القول أن ما انتهى إليه سكينر يغلق بكل المعاني باب النقد[١]، وبالتالي فإنه فكر مأساوي، وأخطر ما في هذه المأساة ليس تجريد الإنسان من مثله العليا فحسب وإنما النظرة التشاؤمية أللا إنسانية التي تسد الطريق أمام أي احتمال لتطور ارتقائي في أي مجال من مجالات الحياة.[٢]

ومع فكر سكينر أقف أمام العديد من التساؤلات:

هل يمكن أن تتحول الصقور إلى حمائم وديعة؟ وهل يصبح السلوك العدواني تعاونيًا؟ وهل من الممكن أن نستبدل بالتمرد الإذعان والخضوع لما هو واقعي؟ هل من الممكن أن يسيطر العبد على سيده، والطفل على أبيه، والمواطن على حكومته، وعضو الكنيسة على الكاهن، والخادم على المخدوم، والتلميذ على المعلم؟.

وأخيرًا:

من أنا (الذات العارفة)؟.

من نحن (الهوية)؟.

من هو (الذات المغايرة)؟.

من هو (الذات الأعلى)؟،.

من هم (الأغيار)؟.

---

(١) google.com (سكينر.وهم الحرية ومجتمع القطيع ٢، ١٥/٠٥/٢٠٠٧).
http://www.iraq4all.dk/Book/Hade-usa/10htm

(2) George Herbert Mead. The Philosophy of the Aet. Chicago: Chicago press, 1938. pp. 226-227.

obeikandl.com